

# عالمية الإسلام

## د. حمزة مسعود الطوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ  
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ  
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ  
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {  
آل عمران 19

الإهداء  
إلى

كل من أشرب في قلبه > إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ  
الْإِسْلَامُ <

أهدي هذا الجهد الذي ألتمس ثوابه  
<يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا>

### المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونبرأ من حولنا وقوتنا إلى حوله وقوته، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . وبعد :

فإن أعداء الإسلام يكيّدون له بمختلف صور الكيد وأشكاله، وبما يحاولون أن يثبتوا به في النفوس من أسباب الضعف والتخاذل؛ باختراع الأكاذيب، وتلفيق الدعاوى، وتزييف التاريخ، وتشويه سيرة نبي الإسلام  $\text{p}$  ، والطعن في أحكامه، وبما

يتكرر كل يوم من الحديث عن جمود هذا الدين، وركوده ، وما ينتج عن اعتناقه من التخلف والبؤس والفقر؛ ومن ثمّ عموم الشقاء وانتفاء السعادة.

ولا شك أن السعادة هدف منشود ، ومطلب مُلِحّ ، وغاية مبتغاة. فكل إنسان يعيش على وجه الأرض يسعى لإسعاد نفسه، وطرده الهم عنها.

ولقد حرص الكتاب من الأدباء والمفكرين والفلاسفة والأطباء على البحث في أسباب جلب السعادة ، وطرده الشقاء؛ ولكل وجهة هو مولياها ، وقد علم كل أناس مشربهم. ومع ذلك فإن السعادة التي يصل إليها أكثرهم سعادة مبتورة، أو ناقصة، بل هي أشبه ما تكون بالمخدر يتناوله متعاطيه فيشعر بنشوة لأول وهلة حتى إذا ذهب أثره رجعت إليه الأحزان أضعافاً، واكتنفه الهم من كل حذب وصوب.

ولا شك أن الناس لن تتحقق لهم السعادة، ولن يبلغوا معشارها إلاّ من طريق الدين.

و لقد حاولت في هذا الكتاب بيان ذلك كله بدءاً ببيان مفهوم الدين وحاجة الناس الدائمة والملحة إليه باعتباره أمراً فطرياً وقانوناً إلهياً يرعى شؤون الناس، ويحمي مصالحهم . فتعرّضتُ في شيء من الإيجاز إلى موقف الأمم من الإسلام، ومحاربتة ومحاولة القضاء عليه، واتهامه بالجمود، وأن اعتناقه يدعو إلى التأخر وسوء الحال. وبيّنت أن الشريعة الإسلامية هي خاتمة الأديان وأحكامها الشرعية خير تشريع يصلح لمواكبة تطورات الزمن وفيه بحاجة المجتمعات البشرية المتجددة والمتنامية.

ثم تحدّثت عن مبدئين من المبادئ التي تثبت سماحة الإسلام وشموله وعالميته؛ فتحدّثت عن مبدأ الشورى الذي يمثل عظمة الإسلام واهتمامه بالإنسان ومخاطبته للعقل . ثم بيّنت أن الإسلام دين الحوار والتعايش السلمي، مما يؤكد عالميته وصحة ما جاء به ، وصلاحه لكل زمان ، ومكان ، وأمة.

ولعل من أبرز خصائص الإسلام أنه دين يجمع بين العقيدة والشريعة ؛ فهو دين كامل في عقيدته وشرائعه؛ وليس ديناً فكرياً فحسب، أو خاطرة تمر بالذهن بل هو شريعة متكاملة في كل شيء ، تشتمل على العقائد الصحيحة ، والمعاملات الحكيمة، والأخلاق الجميلة، والسلوك المنضبط ؛ فهو دين فرد وجماعة ، ودين آخرة

وأولى. يعتني بالعواطف الإنسانية، ويوجهها الوجهة الصحيحة التي تجعلها أداة خير وتعمير.

وبعد فهذا العمل العلمي يعد إسهاما في الرد على مخالفين هذا الدين ومتهميه بالجمود ومحاولة لبيان فضل الإسلام وإبراز محاسنه. وقد حاولت أن أعالج هذه المباحث انطلاقاً من أن الإسلام فكر ومبادئ لا شخصيات تبنته ثم أساءت إليه .  
والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

أ. د. حمزة مسعود الطوير

الأصابعة في 30 / 5 / 2010 ف

### حاجة الناس إلى الدين :

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وزوده بالسمع و البصر والفؤاد ، وأمده باللسان الناطق بشتى اللغات واللهجات، ليتسنى له التفاهم مع بني جنسه، كما منحه القدرة على التفاهم مع المحيط البيئي حوله تدبرا وإدراكا ووعيا، وبصره بحقيقة خلقه ومنشئه ليعيش في تناسق وانسجام مع المناحي الحياتية ( فليُنظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب و الترائب ) ( سورة الطارق الآيات 5 . 7

( كما بيّن له مزاياه عن بقية الخلق، و ذكّره بأنه حملَ على عاتقه أمانة الله في الأرض، وتحمل مسؤولية إعمار الكون، لذا استحق هذا المخلوق أن تسجد له الملائكة ) وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ) (سورة ص 71 . 72 ) و من أجل أن يتمكن هذا الإنسان من النهوض بأعباء الحياة وحمل ما تعهّد بحمله من أمانة إعمار الكون وإصلاحه فقد مهّد الله له الأرض، ويسّر له السبل؛ يسير فيها كيف يشاء، ويتنقل وفق ما تملّيه وسائل الإعمار ومصالح العيش، فجعلت له الأرض ذلولا يمشي في مناكبها طلبا للرزق، كما أنعم الله عليه بأن ذلل له ما على سطح البسيطة من أنعام وغيرها من المخلوقات التي تُتخذ وسيلة تعين على خلافة الأرض، ثم ألهمه بعضا من العلوم والمعارف التي يتسلح بها في التغلب على عقبات الحياة وصعوبات العيش .

ولعل من أكبر نعم الله على خلقه أن وهبهم العقل القادر على التحليل والتمييز والاختيار والموازنة بين الأمور، فكان هذا العقل هو الفيصل الأول والفارق الأكبر بين الإنسان وبقية المخلوقات؛ لأن العقل مناط التكليف وأداة التشريف التي كُرم بها ولأجلها الإنسان، غير أن الإنسان برغم نعمة العقل التي وهبها الله إياه فإنه يبقى عاجزا عن صنع السعادة الحقيقية مهما ارتقى تفكيره وعلا تدبيره؛ لأنه يعيش وفق حدود هداية العقل الذي يظل قاصرا مهما اتسعت مداركه و نشطت ملائكته، فعقل الإنسان لا يحيط بآفاق الدنيا، ولا يعلم من أسرار الكون إلا القليل الذي شاءت له إرادة الله أن يعلمه، فلا يستطيع هذا العقل أن يرسم منهاجا دقيقا تسير عليه الدنيا بأكملها ويسعد البشر بإتباعه في كل زمان ومكان. ومن هنا تأتي الحاجة إلى منهج هداية عام للبشرية جمعاء، يأتي من طريق هي أرقى من مستوى عقل الإنسان؛ فينظّم شؤون الحياة، وينأى بالبشرية عن مستوى الحياة البهيمية، ويمنح الناس حياة كريمة يسودها العدل والحق والمساواة ، ويحوطها التفاهم والسلام عن طريق تشريع محكم مقنن مجرد عن الهوى والتعصب للجنس أو اللون أو الطبقة، كما يهدف إلى التيسير ورفع الحرج عنهم، ومن ثم إلى تحقيق السعادة لهم جميعا، ذلك التشريع هو ما يعرف بالدين، وهو كبرى النعم التي وهبها الله للعباد.

إن مصطلح الدين له مدلولات عديدة ومتنوعة ، فهو لغة يعني الخضوع والانقياد أو الحكم والقهر ، أو المحاسبة والمجازاة بحسب تصريح اللفظ وإسناده أما في الاصطلاح فقد عرّفه بعضهم بأنه (( توجيه الإنسان سلوكه وفقاً لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ، و يطيب له أن يشعر باتصاله بها ))<sup>1</sup>

أو هو (( جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ، ومع الناس ، وفي حق أنفسنا ))<sup>2</sup> وحدّه آخرون بكونه (( الجانب المثالي في الحياة الإنسانية ))<sup>3</sup> وعرّفه دراز بقوله (( هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القدرة الإلهية ، و جملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها ))<sup>4</sup> .

ومن جملة هذه التعريفات نرى أن مفهوم الدين لا يعدو كونه مجموعة من النظم والتشريعات تصدر عن سلطة عليا هي فوق مستوى البشر ، وتهدف في مجملها إلى إسعاد الإنسان . المشرّع له . فالدين إذاً هو قانون إلهي تطبق مبادئه على سلوك الإنسان بحيث تصير هذه السلوك منسجمة مع أحداث الحياة كما أراد لها الخالق ، ويهدف هذا القانون إلى توضيح الطريق وتحديد به حيث يكفل سلامة البشرية في التعايش معاً من خلال حفظ الأرواح والأموال التي هي أداة التعايش المشترك والتعاون المثمر بين بني البشر .

إن المستقرئ لتاريخ البشرية يلحظ أنه لا يمكن لأمة أن تعيش بدون دين ؛ لأن الدين مثلاً هو أمر فطري متأصل في النفس تتشوف إلى مناحيه الروحية وتستريح بتنفيذ تعاليمه العملية ، فهو السياج الذي يحمي الحياة من صنوف الهرج وأنواع الفساد ، لذا فإنه (( ليست هناك جماعة إنسانية ، بله أمة كبيرة ، ظهرت وعاشت ثم مشّت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره ، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه ، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأياً معيناً ، حقاً أو باطلاً ، يقيناً أو ظناً ، تصور

---

1 الدين . محمد عبد الله دراز . دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية . د.ت . ص 28

2 نفسه ص 28

3 نفسه ص 28

4 نفسه ص 44

به القوة التي تخضع لها هذه النظرية في نشأتها، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها ))5 فلا يمكن تصور تشريعات الحياة في غياب التشريعات والأحكام التي تنظم سبل العيش وتقنن عمارة الكون ، سواء أكانت هذه التشريعات نقية في جوهرها صادرة عن خالق الكون أم أنها مصطنعة في مصدريتها لا ترتقي إلى مستوى التشريع السماوي في أحكامها ونظمها. غير أن الناس بالسماوي أوثق، وإلى مبادئه أحوج ؛ لأنه أنسب لمصالحهم، وأحرص على تنظيم أطر تعايشهم وفق آدميتهم ومنزلتهم بين سائر المخلوقات، فحاجة الناس إلى الدين تعني حاجتهم إلى الحياة المنظمة الكريمة التي تؤسس على العدالة واحترام الكون، وحسن التصرف في شؤون الحياة ومقدّراتها. وهذه المبادئ لا يمكن للتشريع الإنساني أن يأتي بها لما في البشر من القصور وعدم الكمال .

إن فطرة الله التي فطر الناس عليها تستدعي أن يكون للناس قانون إلهي يرضى مصالحهم، وينظم شؤونهم، ويقنن طرق تعايشهم بالتشريعات الكفلية بإحداث حياة كريمة، بحيث يكون الدافع لاتباع هذه النظم والتشريعات ذاتيا ينبع من نفس الإنسان، وتكون الرقابة في تنفيذ تلك التشريعات والمحافظة عليها موكولة إلى الإنسان نفسه، مسندة إلى ضميره ووجدانه؛ لأن الدين السماوي له سلطانه الفطري على الروح وسلطته الاختيارية . غير القسرية . على الأفكار، شرع ليخاطب عقول البشر عن طريق الرسل والدعاة الذين ينقلونه إلى المخاطبين به بالتلقين والتعليم، فيمتزج بقلوبهم ويرسخ في أذهانهم، وتصطبغ نفوسهم بعقائده، وتتعلق أفئدتهم بتشريعاته، فيستجيبون لأوامره، ويلتزمون أحكامه التعاملية والتعبدية. أما القوانين الوضعية فيتم اتباعها والتفاعل معها وفقا لإرادة السلطة التنفيذية للمشروع له فرداً كان أو دولة، ومن ثم فإن الامتثال لما ورد فيها من أحكام ومحاولة الالتزام بتطبيقها أمر متأرجح بين الحرص والتراخي وفقا لما تقتضيه أحوال السلطة التنفيذية التي يوكل إليها متابعة تنفيذ اللوائح والأحكام القانونية، على نقيض التشريعات السماوية التي يكون الدافع إلى الالتزام بها ذاتيا، ينبع من ضمير الفرد وينشأ عن فطرة جُبلت عليها النفس البشرية لإدراكها أن صانع التشريع هو صانع المشروع له، فهو أعلم بشؤون خلقه وما تتطلبه حياتهم، وما

ترتضيه نفوسهم) (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ) ( سورة الملك : 14) فلا يأتي الدين إلا بما فيه خير الناس وصلاحهم، فتتعلق النفوس بالدين، وتقبل تشريعاته وأحكامه وفق الاقتناع المبني على التدبر في الأحكام وتوظيف العقل للتمييز بين الحق والباطل ( لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم) (سورة البقرة : 256) ولأن الدين جبلة في النفس ومسألة فطرية تتشوف إليها النفوس وتتلذذ باتباعها، وتجذ فيها ضالتها الروحية، فليس لأحد أن يُكره أحدا على اتباع الدين ولو كان رسول الله نفسه ( أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ) (سورة يونس:99) فللناس حرية الفكر والرأي واختيار العقيدة ( فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)(سورة الكهف 29)

ولعل المستقرئ لتاريخ الأديان لاسيما الدين الإسلامي يلحظ ما تنص عليه تعاليمه من حرية الاعتقاد مما حدا بأعدائه إلى الاعتراف بأنه يمتاز ببعده بعدا تاما عن الاضطهاد الديني. جاء في كتاب " قصة الحضارة " (( لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرذشتيون واليهود والنصارى والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ))<sup>1</sup>.

ثم إن حاجة الناس إلى الدين تنبثق من أن شؤون الحياة لا تستقيم بدون النظم والتشريعات التي تأتي عن طريق الأديان؛ فالاحتياج إلى الدين هو الاحتياج إلى القانون الذي ينظم بطبيعته شؤون الحياة، ويكفل دفع الهرج بين الناس، وعن طريقه ينتشر الخير ويعم العدل؛ لأن الأديان ليست مجرد ثورة من العقائد أو مجموعة من الأخلاق المهدبة التي لا تحتاج إلى سلطة تحميها وتحث على اتباعها لكونها تنقص ثوبا روحانيا يسعى الناس إلى ارتدائه والتزين به، لكنها نمط خاص من السلوك المقترن بالعمل، فهي (( لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده ، أو تتولى شعائره وتهمل شرائعه ، أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه ، وأنها لا تتولاه فردا وتهمله

1 - ينظر : قصة الحضارة . وول ديورانت . ترجمة محمد بدران . مطبعة التأليف والترجمة والنشر . ط2 . 1964م

جماعة ، ولا تتولاه في حياته الشخصية وتهمل نظم حكمه أو علاقات دولته ))<sup>6</sup> فالأديان تشتمل بالإضافة إلى الجانب الروحي المتمثل في العقيدة والأخلاق على نظم وتشريعات تكون بمثابة الدستور المنظم للحياة ، ومن شأن هذه النظم والقواعد أن تحافظ على نمو المجتمعات البشرية ولذلك فإن (( جميع الديانات السماوية لم تكتف بتعليم وجود الله والإيمان به وبصفاته العليا فحسب ، بل اهتمت بتبليغ أوامر الله ونواهيه لخلقه ))<sup>7</sup> لأن غاية الدين هي فعل الخير وإسعاد الخلق في العاجل والآجل عن طريق هداية الله لهم، فهو يرتقي بالإنسان نحو الأفضل بواسطة ما يمليه من تشريعات تتمشى مع واقع الحياة وتلائم حاجات الإنسان الفطرية، بخلاف القوانين الوضعية التي يصوغها الإنسان نفسه، وتأتي من طريق تأملات بشرية قاصرة<sup>8</sup> .

إن مما يؤكّد حاجة الناس إلى الدين في كل زمان ومكان مصدرية الدين نفسه، وكونه وحي من الله إلى أهل الأرض جاء عن طريق الأنبياء والرسل لأجل هداية البشر وتحقيق مصالحهم في الدارين ، فإذا علم الإنسان أن هذا الدين وحي من الخبير بشؤون عباده تعلّق به وجدانه وتآقت نفسه إلى اتباع أحكامه وتشريعاته ويلم بما خفيت حكمته ودقت فلسفته؛ لأن الله أعلم بمصلحة خلقه، فلا يشرع لهم إلا ما فيه خيرهم وإسعادهم دنيا وأخرى. ومن هذا المنطلق يتعين أن الناس محتاجون بطبعهم إلى الدين باعتباره قانونا إلهيا لا يتطرق إليه الخطأ، ولا يعتريه القصور؛ بل إنه يحمل في تعاليمه كل ما من شأنه أن يبلغ أعلى درجات الكمال، فينتقل بالإنسان في عقيدته من ظلال الكفر والإلحاد إلى نور الإيمان، ومن متاهات الشك والحيرة إلى العلم واليقين، ويرتقي به سلوكيا من فظاظة الطبع إلى المدنية والخلق الحسن؛ فيكون مؤهلا لخلافة الأرض قادرا على إعمارها والعيش فيها؛ وبما أن الدين آت من جهة الكمال، وهو من تدبير وإرادة خالق الإنسان الذي يعلم طبيعة النفس البشرية

2 - السلام العالمي و الإسلام . سيد قطب . مكتبة وهبة . مصر . ط 1951 م . ص 9

<sup>3</sup> - دفاع عن الشريعة . علال الفاسي . منشورات مؤسسة علال الفاسي . المغرب . د.ت . ص 69

4 - ينظر : الدين والحضارة الإنسانية . محمد البهي . مكتبة الشركة الجزائرية . 24 باب عزون . الجزائر . د. ت . ص 81 بتصرف

وما تحتاج إليه من صنوف الهداية وأساليب الرعاية فإن أحكامه وتشريعاته تكون صالحة للبشرية على السواء ، توائم كل النفوس وتلائم جميع الأعصار ، تقرر للناس ما يفيدهم وتبصرهم بما يضرهم ، بخلاف القوانين الوضعية الناشئة عن اجتهاد الإنسان، التي لا تعدوا فيما تدعو إليه أن تكون مرآة لبيئة المشرع . الإنسان نفسه . ومحيطه الثقافي، حيث تنعكس آثار البيئة والثقافة على تلك التشريعات، فتأتي مناسبة لبيئة دون أخرى، وموائمة لمجتمع أو طبقة دون غيرها، بل قد تتمشى مع بعض أفراد المجتمع الواحد دون الآخرين؛ لأنها تجسد ثقافة المشرع وسلوكه وعقله وأنماط تفكيره ونظرته العامة للحياة وحده دون غيره. أما القانون الإلهي فمهما تعددت تنزلاته أو توالى على أيدي العديد من الرسل . المصلحين . فإنه لا يختلف في غايته ومقصود وملاءمته لكل البشرية على اختلاف الزمان والمكان، فالأديان السماوية الأصيلة جميعها موحدة في غايتها لتوحيدها في مصدرها ، حتى وإن كانت شرائعها تأتي على قدر حاجة المشرع لهم، فهي وإن اختلفت في كيفية نزولها ومقدار تشريعاتها فإنها تلتقي جميعا في مؤداها بحيث تدعو إلى الإصلاح الروحي والمادي للإنسان والكون قاطبة.

إن القوانين الوضعية الناتجة عن التجربة الإنسانية وإعمال الفكر تختلف في المقصد والغايات اختلافها في مصدرها الذي يحوط به القصور، ويعتريه النقص فرداً كان أم جماعة؛ لأن ما يشتمل عليه التشريع السماوي من صنوف الهداية والدعوة إلى الخير والتوجيه نحو سعادة الدارين يعجز العقل البشري عن الإتيان به مهما أوتي هذا العقل من قوة ورجحان؛ لأن العقول في حقيقتها مادة مصنوعة لها أفق لا تتجاوزه، فهي مهما توقدت ذكاء وفطنة لا تتجاوز ما حد لها صانعها، وما سمح لها بالوصول إليه من الاكتشافات والابتكارات؛ ليبقى الإدراك الكلي والعلم التام بالكون وما فيه لخالق الكون سبحانه ( ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ) ( البقرة : 255 ) .

ن من المسلم به أن الله قرر الشرائع والأديان رافة بخلقه، وتحقيقا لمصالحهم في العاجل والآجل، فبعث الرسل مبشرين ومنذرين ليسلكوا بالناس مسلك الهداية ، ويبينوا لهم فلسفة الخلق كما أوضحها الخالق في القرآن بقوله ( وما خلقت الجن

والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات:56) وهذه العبادة التي خلق الله لأجلها الخلق ، وأرسل بها الرسل نادت بها الشرائع والأديان على تعاقبها، كالتوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج، والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحريم ارتكاب الخطايا كالقتل والزنا والقذف والسرقة وإذهاب العقل بالمسكرات، وإيذاء الخلق، وهذه الوجوه التي تمثل في مجملها تمام الإيمان واكتمال التدين يمكن تقسيمها إلى ثلاثة جوانب رئيسة يحتاجها الناس باحتياجهم للدين هي : العقيدة والعمل والأخلاق .

فأما العقيدة السليمة الخالصة من شوائب الشرك والظلال فتتجه بصاحبها نحو عبادة رب واحد لا يشرك معه أحد في ربوبيته ولا ألوهيته، ومن ثم تربط الإنسان بخالقه، والكون بمنشئه، تودع في النفس البشرية قوة وتودع إصراراً على تحدي المشاكل الحياتية من خلال التأييد المعنوي المتمثل في الصبر وصدق الإرادة وقوة العزيمة المستمدة من اتصال النفس بالقوة الأزلية وارتباطها بها ارتباطاً وثيقاً ( فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم ) (سورة البقرة :256) فحاجة الناس إلى الدين عموماً وإلى العقيدة الصحيحة بشكل خاص تكمن فيما للعقيدة الصحيحة من آثار تنعكس على النفس البشرية فتصير بفضلها واثقة مطمئنة لا تأبه بقوى الطبيعة ولا بجبروت المادة؛ لعلمها أن هناك قوة أعلى وأكبر من سلطة الطبيعة وسلطان المادة، هذه القوة هي التي أوجدت الطبيعة بسلطانها والمادة بسلطانها ، ولذا فإن ما يقدمه الدين عن طريق العقيدة الراسخة لا تقوى النظم البشرية على تقديمه؛ لأن النظم والتشريعات البشرية تمنح بعض النظم الوقتية لمشكلات الحياة ، وتبقى هذه الحلول مرتهلة بعنصري الزمان والمكان، فضلاً عن أنها تعالج بعض المظاهر الحياتية وتقتصر عن بعض، وهي تحتاج في تنفيذها والأخذ بها إلى القوة البديلة التي تغرسها العقيدة الدينية في نفوس معتنقيها، ومن ثم فإن قيمة العقيدة لا تقف عند تقديم الحلول للمشكلات الإنسانية فقط ، بقدر ما (( تقدم معها القوة الضامنة لتحقيقها وحمايتها ، قوة الدافع الفطري العميق للعقيدة الدينية ))<sup>9</sup> وهذا الدافع الفطري الناشئ عن اتصال الإنسان

1 السلام العالمي و الإسلام . ص7

بخالقه يستمد قوته ورسوخه في النفس من قوة ذلك الاتصال، وبالتالي فإن الإيمان وما يحدثه في النفس من ثقة واستقرار يختلف من شخص لآخر زيادة ونقصانا .

ومن أجل كمال الدين في النفوس شرع الله العبادات ليثاب الناس على حسن أدائها، ويُجازى المقصرون منهم على التفريط؛ لأن الدنيا ممر إلى الآخرة، يؤدي إلى حسن المستقر، أو على مهالك الردى في سقر، والعبادة الخالصة لله هي المسلك المؤدي إلى دار السلام، ولن يهتدي الإنسان إلى هذا المسلك، أو يسير عليه إلا بالإيمان العميق الذي يباشر شغاف القلوب، ثم إن الإنسان بحكم خلقه وتكوينه وما أودع الله فيه من حواس ظاهرة، واستعدادات نفسية كاملة قادر على التفاعل مع محيطه الاجتماعي والوسط الذي يعيش فيه سلبا وإيجابا؛ لأن له في قرارة نفسه اتجاهين متناقضين، فهو يحمل استعداداً للخير وآخر للشر ( ألم نجعل له عينين و لسانا و شفيتين وهديناه النجدين ) (سورة البلد 8 . 10 ) ومن شأن التوجه إلى الله بالعبادة وصنوف الطاعات أن يقتل في النفس نزعة الشر، وأن يعمل على كبح جماحها وتخليصها من الولوج في مهالك الرذيلة؛ لتسمو إلى منزلة النفس الواثقة المطمئنة، وتحقق بذلك التوازن الطبيعي في التصرفات الإنسانية فيكون الإنسان مستقيما في سلوكه وأعماله .

إن احتياج الإنسان إلى تشريعات الدين وأحكامه العملية التعبدية مركوز فيما يتحصّل للمرء من تطبيق العبادات والطاعات وأدائها كما ينبغي. فالصلاة هي الحبل المتين الذي يصل الإنسان بخالقه، وبها يستقيم العمل ويتقوّم السلوك ( إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ) ( سورة العنكبوت: 45 ) وبالزكاة تطهر النفس من الشح والحب الجم للمال وإيثار الدنيا على الآخرة ( خذ من أموالهم صدقة تطهرهم و تزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ) (سورة التوبة 103) كما يربو المال بفضلها، ويسود التكامل بين الناس، ويعود الصوم النفس البشرية على الصبر وتحمل المشاق، فضلا عن الصحة الجسدية، ويكسب الحج المرء رياضة جسدية وروحية ومنفعة مادية، وهو ملتقى بشري عظيم يذكر بيوم الحشر، ويعود على الإخاء والألفة والتعارف .

إن هذه العبادات جميعا التي هي مطمح الدين و مطلبه تنشأ في نفس الإنسان روح الوحدة الدينية التي تطالب بها البشرية جمعاء ، ومن ثم يتوجه كل البشر في أدائها نحو رب واحد ، لغاية واحدة هي السعادة في الدنيا والآخرة وقد شرعت هذه العبادات (( كي يكون الإنسان صاحب اتجاه واحد، كي يكون صاحب نفس مطمئنة راضية، كي يكون صاحب توازن ، وعدل واستقامة ))<sup>10</sup> يتحقق في نفسه الاستقرار، ويتخلص من التراكمات والعقد النفسية، فيعمل مع بني جنسه على إحياء الرقيب الوجداني، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسيطر الرقابة الاجتماعية الذاتية على المجتمعات البشرية، عملا بقوله تعالى ( ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ) (آل عمران 104) .

وإلى مثل حاجة الإنسان إلى الدين في العبادات تكون حاجتهم إلى التشريع العملي المقنن في جانب المعاملات، إذ يحتاج الناس إلى دستور ينظم العلاقات الاقتصادية والمعاملات المالية بحيث يكفل الحرية المادية لكل أفراد المجتمعات البشرية، ويعمل على تحقيق تكافؤ الفرص بين الناس؛ فيعم الأمن والسلام أرجاء الكون؛ لأن المال هو عصب الحياة وشريانها الدافق، وحكره على طبقة من الطبقات، أو قصره على فرد دون غيره يولد الحسد والحقد بين الأفراد والمجتمعات، ومن ثم يسهم في نشر الجريمة، وعموم الفساد ( ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ) (سورة الحشر: 7) كما ينهى الدين عن اكتناز صنوف الأموال واحتكارها لما في ذلك من المشقة والعسر، وإيقاع الضرر بالناس ( والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ) (سورة التوبة 34) وفي وجود الدين بأحكامه التشريعية لا يتصور الفساد في الأرض والعبث بأي من المقدرات الاقتصادية؛ لأن الشارع لا يقر ذلك، ويتوعد المفسدين بأشد العذاب ( والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ) ( سورة المائدة: 34) ففي القطع رحمة للناس بزجرهم عن السرقة وكفهم عنها، وتكفير عن

1 الدين والحضارة الإنسانية . ص 91

السارق، إضافة إلى صيانة المال . قوام الحياة . وحماية الملكية الخاصة من الأيدي العابثة التي تشيع الفساد في الأرض ( إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ) ( سورة المائدة 33) فحاجة الناس إلى هذه الأحكام تنبثق من احتياجهم لمنع الاعتداء قسرا على الأنفس والأموال والأعراض وما ينجم عنه من نشر الرعب بين الناس، وزعزعة استقرار المجتمعات، وقطع السبيل وسلب الحرية والإرادة والحركة والتنقل. فكف المعتدين عن الأنفس والأعراض والأموال، وصيانة المجتمع من الأضرار بالتشريعات المقننة الرادعة التي تبدو للرأي مغلفة في حين أنها تحمل في باطنها الأمن والسلامة نعمة كبرى تحقق الاستقرار التام للمجتمع الإنساني، وينفر من أكل أموال الضعفاء؛ خلقا للتكافل الاجتماعي بين الناس ( إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا و سيصلون سعيرا ) (سورة النساء 10)

وتأتي حاجة الناس إلى الدين من كونه لا يجوز التعامل مع المال والمتاع بالطرق التي تؤدي إلى الاستحواذ عليه بدون استحقاق له ( ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ) ( سورة البقرة 188 ) ويحذر من الربا؛ لأنه من أفسد وجوه أكل المال بغير حق (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ) ( سورة البقرة 275 ) وغيرها من النصوص التشريعية التي تنظم شؤون اقتصاد الأمم .

أما فيما يخص السلوك . الجانب الثالث . فإن الناس لا غنى بهم عن الدين الذي يمثل مصدر الترابط الروحي في العقيدة ووحدة العبادة، وتتعد به أقوى الوشائج الاجتماعية وأدومها بما يدعو إليه من التآخي والترابط ونبذ الأحقاد والتسامح بين الناس (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) (سورة الأعراف 199) (( ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ) (سورة فصلت 34) وفي النص التوراتي (( وإن صفعك أحد على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ))(11

1 نقلا عن كتاب : الإسلام دين العلم و المدنية . ص 51

فإن هذه القيم وغيرها من مبادئ الأخلاق هي محصلة مباشرة الإيمان للقلوب و استقراره فيها .

كما أن مهمة الدين لم تكن قاصرة على الأمر بأداء الطاعات، أو العمل على تقويم الفساد في الأرض وإزالة المنكر فحسب (( بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثرا في كيان الجماعة، ذلك أنها تربط بين قلوب معتقيها برباط من المحبة والتراحم لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار أو المصالح المشتركة ))<sup>12</sup> لأن مثل هذه الروابط الاجتماعية التي تأتي من غير طريق الدين (( تظل روابط سطحية تضم الأفراد كما تضم الأعواد في ضغث، ولا تزال تخللها الفجوات والثغرات والحواجز النفسية، حتى تشدها رابطة الأخوة في العقيدة والمشاركة في المثل العليا ))<sup>13</sup> وهذه القيم التي تتأصل في النفوس لا تأتي إلا من طريق الدين الذي يسعى إلى وحدة الجماعة البشرية وتماسك أفرادها، بما يغرسه في نفوس المتدينين من معرفة الآخر، والتفاعل معه، وإقرار حقه في الحياة، ومن ثم تنشأ العلاقات الاجتماعية بين الجماعات والأفراد الذين يلتقون في وحدة الهدف وتربطهم وحدة المصير؛ فيتغلبون على عقبات الحياة ويتعاونون في توظيف سبل العيش ومقدراته، نحو التعايش السلمي في أرجاء المعمورة .

ومما تمنحه الأديان للإنسان نعمة الحرية التي هي من نفائس المكاسب البشرية التي تنشأ عن المساواة المطلقة بين الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم، حتى يصيروا متساوين في الحقوق والواجبات والمسؤوليات القائمة على العدل الذي (( لا يؤثر بالجاه أو الثراء أو الفقر أو السلطان ))<sup>14</sup> وبإقرار العدل المطلق والمساواة التامة بين الناس تهدف التشريعات الإلهية إلى تحرير الإنسان من كل قيود الذل والعبودية فترفض الهيمنة على الأجساد وتدعو إلى إنهاء الرق وتحرير الرقيق، وتحارب العنصرية التي تناقض أصول وجود الإنسانية؛ لأن الناس مهما كثر

2 الدين ص 94

3 نفسه . ص 94

1 القرآن حرر الإنسان . إبراهيم الشهابي . منشورات كلية الدعوة الإسلامية . طرابلس . ليبيا . ط2 . 1992 . ص

عددهم واختلفت أجناسهم وتباينت ألسنتهم فكلهم (( لأدم، وأدم من تراب )) 15 ( )  
يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما  
رجالا كثيرا ونساء)) (سورة النساء 1) ( يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى  
وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ) (سورة الحجرات 13 )

كما ينبذ الدين الاستيلاء على الحقوق المادية والمقدّرات الحياتية عن طريق  
الاحتكار والكسب غير المشروع وأكل أموال الناس بالباطل؛ لأن ذلك كله ظلم  
واستبداد، وتحكّم في عصب حياة الآخرين، ومن ثمّ فإن التشريعات السماوية تريد  
للإنسان أن يعيش حرا كريما بعيداً عن مذلة الاحتياج ، ودون أن يتسلط عليه أي  
سلطان أو يعيش تحت المؤثرات سوى النظم والتشريعات الإلهية التي لا تمثل سلطة  
قسرية بقدر ما هي أحكام ولوائح تنظيمية تقنن حياة الأفراد والمجتمعات، وتخلّصها  
من الفوضى والفساد (( فقد يغلب الهوى ، وتحكم الشهوة ، فيغمر الحق، ويتعدى  
المعتدي الحد، فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة من إقامة  
الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصون نظام الجماعة )) 16 غير أن هذه القوة  
التي يحصرها الشارع في ولي الأمر القائم بشؤون الناس ليس لها حرية التسلط  
المطلق على البشر إلا في حدود إقامة العدل ورعاية المصالح؛ لأن الإنسان خلق  
أصلا ليعيش حرا في ظل التشريع الإلهي الذي يؤمنه في شخصه وفكره وعقيدته  
من كل قهر أو اعتداء. فلا سلطة على هذا الإنسان إلا في إطار قانون السماء الذي  
يُسَنّ لتحقيق المصلحة العامة دون النظر إلى مصلحة فرد أو جماعة بعينها (( وتلك  
ميزة قيام الدولة على شريعة الدين وقانونه، فالحرية الكاملة من كل عبودية أرضية  
لن تكون إلا في مثل هذا القانون )) 17 .

ومثلما يدعو الدين إلى الحرية المادية للإنسان فهو لا يغفل الحرية المعنوية  
المتمثلة في الجانب العقلي، فهي ينهى عن الاضطهاد الفكري القائم على منع

---

2 هذا جزء من الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه . باب في فضل الشام و اليمن . 471 / 12 . حديث رقم  
3891 . وهو بتمامه عند رسول الله ﷺ أنه قال : (( قد أذهب الله عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بآبائها ، مؤمن نقي  
وفاجر شقي ، والناس بنو آدم وأدم من تراب )) (المكتبة الإلكترونية . المكتبة الشاملة ) .

3 الإسلام دين العلم و المدنية . الشيخ محمد عبده . تحق عطا العراقي . دار قباء . القاهرة . 1998 م . ص 134

1 السلام العالمي والإسلامي . ص 48

الحريات الفكرية التي هي قوام الحياة الإنسانية وأساس التعبير عن خلجات النفس وهواجس الصدور، وقد اهتمت الأديان بالعقل الإنساني باعتباره محل المسؤولية ومناطق التكليف، وفتحت أمامه المجال للتألق والتفاعل مع ما حوله من مظاهر البيئة دون أن تقف عائقاً يصده عن التفكير والإبداع .

إن المستقرى للأديان السماوية . غير المحرّفة . يلحظ اهتمامها بالامحدود بالعقل البشري باعتباره أداة الفهم ووسيلة الإدراك ، فهي تسعى إلى تحريره من الطلاسم والمعميات وأوهام الكهانة، وتعمل على تخليصه من وحل الخرافة والأساطير، وكل ما يصده عن المعرفة والعلم والحضارة؛ لأن غاية الدين أن يكون الإنسان حراً في تفكيره ومعتقداته، متحرراً من الجهل الذي يحول دون العطاء الفكري والابتكار، وبالتالي في ظل التشريع الإلهي يظل حراً ما لم يجنح في تفكيره ويشذ في عمله وأنماط سلوكه عن التشريعات الإلهية المنظمة لشؤون الحياة

إن الحياة البشرية سلسلة من الدوافع المتزاحمة والمصالح المتشابكة تتفاعل فيها القوى وتتنافس القدرات؛ فيتم التعامل مع مقدراتها أخذاً وعطاءً، ويسود التدافع بين الناس، وتتشأ الصراعات بين الأمم والجماعات بحثاً عن الأفضل، ومن هنا تأتي حاجة الناس إلى دستور عام ينظم الحياة بأنفعالاتها المختلفة، ويزيل التدافع غير المشروع فيها من خلال تشريعات وأحكام تقن التعامل مع مقدراتها، هذا الدستور هو الدين الذي لا تستقيم حياة الناس بدونه .

### موقف الأمم من الإسلام :

لقد ثبت من طريق العقل أن الناس محتاجون دائماً إلى الدين باعتباره مسلك الهداية والطريق المؤدي إلى النجاة والسعادة في الدارين فهم أحوج ما يكون إلى دين عالمي، يتسم بالشمول؛ يشمل حياة الأولين والآخرين، ويقوم ما طرأ على الشرائع السابقة من التحريف والتبديل، سمح في تشريعاته وأحكامه، يوائم الخلق على مختلف أجناسهم وعقولهم، ويربطهم بخالق الكون ومدبره، ويحررهم من ضلالات الجهل والشرك، ذلك هو الإسلام خاتم الأديان والمهيمن على الرسالات جاء ليخلص بالعبادة

إلها واحدا بعيدا عن تثليث أهل الكتاب ( لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ) (سورة المائدة 73 ) ويصح مفاهيم العقيدة بعد أن حاد بها الوثنيون عن جادة الصواب ( قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ) (سورة الإخلاص 1-4) (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ≡ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ) (سورة الأنبياء 98-99) وأقرّ شرائع الله في الأرض، وأرسى دعائم الحق، وأحكم عرى العدل بين الناس. دعاهم إلى تآلف القلوب وتوحيد الوجهة الدينية والدنيوية، وأتاهم بما لم يعرفوا من محاسن الأخلاق ومكارم الأعمال، ولذا فقد عاش الإسلام منذ بزوغ فجره صراعات متوالية وتحديات ثقافية واجتماعية فرضها رسوخ العرف السائد والدين المحرّف في النفوس. إن هذه الصراعات التي بنيت على تعصب أهل الكتاب و صلف مشركي العرب تمثّل انتكاسا لحال البشرية وما كان عليه من الغواية والجهل حين ظهور الإسلام، وتبدي ما كان عليه الناس آنذاك من ضلال فكري وفساد عملي أتى الإسلام بما يناقضه من العقيدة الصحيحة، والتشريعات المحكمة التي عجز البشر عن الإتيان بمثلها .

لقد تفاعل الإسلام منذ مولده مع الإنسانية بالحكمة والوعظ، والمجادلة الحسنة ولم يُعمل معتقوه السيف إلا حين ألجأهم العدو إليه، ويمكن القول إن المواجهة الحقيقية للإسلام مع خصومه بدأت بعد عقد من الزمن مليء بالصبر والحكمة والدفع بالتي هي أحسن، إذ إن معاداة قريش للنبي ﷺ والمسلمين سبني مكة رد فعل طبيعي يصدر عن نفوس تعلقت بمعتقدات ظلت سائدة لقرون عديدة ؛ فهذه الثورة الدينية على المعبودات والآلهة هي تغيير جذري لوجهة الكون بأسره ، وتسفيه لأحلام تتخذ الأصنام أربابا وتؤمن بتعدد الآلهة، فليس من اليسير أن تتسّى قريش أوثانها وتتنقاد للإسلام منذ أول برهة، بل لابد لها من معارضة تصحب تلك الثورة، فحينما دُعي الناس لنبذ تلك الضلالات والتوجه بالعبادة نحو إله واحد استتكروا هذا الأمر وحاولوا دفعه بكل قوة، وقالوا مندهشين ( أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ≡ وانطلق الملاء منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ≡

ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ) (سورة ص 5. 7 ) إلا أن هذه المعارضة يجب ألا تتجاوز حدود وضوح هذا الدين الجديد، وبيان وجه الحق، ونور العدل فيه، فلم تخل ساحة المعارضة من التصدي للإسلام الذي دعا إلى الحوار الهادئ والهادف وفق الحجة والبرهان العقلي، فتحدّى الخليفة إنسها وجنّها أن يأتوا ولو بسورة من مثله في فصاحته وبيانه، وتوجيهاته التربوية وإخباره عن الغيب، وفي تشريعاته السامية التي تنظّم الحياة، وتحقق الأمن والعدل والسلامة في الأرض ( وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ) ( البقرة 23 ) ولمّا تبينّت العقول وجه الحق، واتضح فساد معتقد الجاهلية صار الناس يتقاطرون على اعتناق هذا الدين الجديد الذي يمثل ثورة صاخبة في وجه الظلم والاستبداد .

وبانتقال الإسلام إلى المدينة ( أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ) (سورة الحج 39 ) من أجل مدافعة الكفر، والدعوة إلى عبادة الله وتحرير العباد، وتنمية المجتمعات ببناء حضارة إنسانية قوامها العدل، وأساسها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغايتها بلوغ الإنسان مرتبة قصوى من السعادة دنيا وأخرى. وأخذ القرآن يحاور العقول ويخاطب الأحاسيس والوجدان، فيتغلغل في النفوس وينساب في القلوب ليملأ سويداءها رأفة ورحمة، وينقلها من جفاء الأعراب وغلظة الجاهلية ونزقها إلى نفوس آمنة مطمئنة ملؤها الحب وشعارها التراحم ( محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ) ( سورة الفتح 29 ) فهياً الله للإسلام قلوباً سليمة وعقولاً راجحة بما اهتدت إليه من الحق، فاعتنقته، وتعهّدت به بالدفاع عن حوزته والذب عنه. وبرز المعارضون لدورته ، الذين ناصبوا له العداء وكادوا له الدسائس واحتالوا في إبطاله حتى أعيتهم الحيلة، وهؤلاء هم من مشركي العرب الذين خالف القرآن أهواءهم وصادم بتعاليمه جنوحهم إلى الرذيلة، وأبطلت تشريعاته مصالحهم الشخصية، إلا أن هؤلاء انتهى بهم العناد إلى طريق مسدود فاستتاروا بنوره بعد حين. فما أن فُتحت مكة حتى دخلوا في دين الله أفواجا. أما أهل الكتاب الذين تجاوزت عداوتهم للإسلام حدود عداوة المنزل عليه . محمد . إلى عداوة الملائكة، فقد دفعهم الحسد والحقد إلى الزعم بأن الله أرسل جبريل إليهم وأمره

أن يجعل النبوة فيهم فجعلها في غيرهم فاختلقوا أعدارا واهية لعداوة النبي ﷺ وهجر الدين، وانتهى بهم الأمر إلى (( أنهم واجهوا النبي ﷺ بأن جبريل وهو ولي النبي ﷺ هو عدوهم ، وأن ميكائيل وليهم ، وأنهم لهذا يفارقون النبي ﷺ ولا يتبعونه ))<sup>18</sup> فحَقَّرهم الله بقوله : ( قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ) ( سورة البقرة 97 . 98 ) ويتضح لك تهافت اعتقادهم وسخف عقولهم حين يقرون أن جبريل ملك من الملائكة وهو سفير الله المبلغ لرسالاته إلى أهل الأرض ثم يعادونه ويبغضونه تكبرا واستعلاء ؛ لأنه نزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ فكفى بتلك الأحلام سفها .

ولا شك أن لعداوة أهل الكتاب للإسلام أسبابا ودوافع جعلتهم يناصرونه العداء ، ولا يألون جهدا في إيقاف انتشاره والقضاء عليه، ويرد بعض المفكرين هذا العداء إلى عدم المعرفة الحقيقية للإسلام من قبل الغربيين، وأرى أن هذا القول غير مسلم به على إطلاقه؛ فأهل الكتاب كانوا على علم بأن الله سيبعث نبيا عربيا اسمه أحمد يأتي بتشريع مصدق لما قبله من الأديان غير المحرفة، ومقيما لما زيف منها (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ) ( سورة الصف 6 ) فعدم معرفتهم للإسلام أمر مفتعل مقصود لذاته يسعى إليه رجال الكنيسة والمفكرون منهم ليحجبوا نوره عن أعين العامة وينأوا بهم عن اعتناقه، فهو وإن كان سببا فمن ورائه أسباب، لعل من أهمها : عالمية الدعوة الإسلامية وعدم قصرها على أمة دون أخرى ( وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) ( سورة الأنبياء 28 ) ( وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ) ( سورة سبأ 28 ) ( وما هو إلا ذكر للعالمين ) ( سورة القلم 52 ) فإذا كان هذا الدين مخاطبا به كل البشر، والناس سواسية أمام تعاليمه، ومحمد رسول الله إليهم جميعا ، فإن هذا يثير حفيظة أهل الكتاب؛ لأن عالمية الدين تتنافى مع ما جبلت عليه نفوسهم من احتقار البشر ( وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ) ( سورة المائدة 18 )

<sup>1</sup> زهرة التفاسير . محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي . د.ت. 326/1

فقادهم الانحطاط الفكري والإسفاف العقلي إلى عداوة هذا الدين الذي ينسف بتشريعاته البناء ما حرّفوه من تعاليم دينهم، ويدعو إلى نبذ ما في أناجيلهم المزيّفة من عقائد مغلوطة وتشريعات متهافئة صنعها لهم كَتّاب الأناجيل، ويأمر بعبادة إله واحد من طريق واحد) ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ) ( سورة آل عمران 58 ) ( إن الدين عند الله الإسلام ) ( سورة آل عمران 19 ) .

ولعل تكريم الإسلام للأمة المحمدية ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ) ( سورة آل عمران 110 ) قد أجج نار الفتنة في صدورهم و أذكى فيهم الحقد على أهله فاحتالوا قديماً للقضاء عليه بالتحالف مع الأحزاب من المشركين تارة، وبالمكيدة للنبي ﷺ ومحاولة قتله تارة أخرى، وقد أنكروا نبوته مطلقاً مع علمهم بصحتها ، ومعرفتهم التامة لصفاته التي وردت في الكتاب المقدس(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ) ( سورة النمل 14 ) فلم يرتضوا تعاليم الدين العالمي الموجه لأهل الأرض على السواء ؛ مثلما أنهم لم يرتضوا تعاليم دينهم من قبل ، فبدلوا تشريعات ربهم بتعاليم البشر ، وحرفوا النصوص عن أصلها المقدس ، ولم يقبلوا بأحكام الإسلام ، ولما دعاهم القرآن الكريم للإيمان بالدين الإسلامي الجديد باعتباره خاتم الأديان أبوا ، ففضح أمرهم ، وبين فساد مخبرهم ومظهرهم ، وتحدث عما فعلوه من تحريف الشرائع وقتل الأنبياء حتى مسخهم الله بجرائرهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، فحين ذكر القرآن هذه الحقائق تنكروا له وناصبوه العدا ، وعملوا بكل مكر ودهاء على إنهاء دعوته ، وقتل المسلمين سرا وعلنا ومحاولة تشويه صورة الإسلام ومبادئه أمام العالم ، وتغيير الناس منه ، وتأليب الأمم عليه من خلال المخططات الرامية إلى استهداف الإسلام و المسلمين في العالم ، ونشر تعاليم المسيحية لتحل محله( يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ) ( سورة الصف 9 ) .

ومن أسباب تكالب الأمم على الإسلام دعوته إلى الوحدة وربط الجماعة برباط التشريع القائم على العمل التكليفي من خلال الخطاب الجماعي الموجه لكل البشر وما ينتج عنه من التآزر و التآخي الذي يشكل خطراً على كيان الأمم من غير

المسلمين، ويهدد مصالحهم القائمة على "فرق تسد" فالإسلام بتشريعاته التي يجتمع عليها المسلمون هو مصدر قوة المسلمين وسر انتصارهم بما يمددهم به من قوة معنوية ، وما يزودهم من كم هائل من العلوم النظرية والأعمال التطبيقية في شتى مناحي الثقافة والمعرفة التي بنيت عليها الحضارة الإسلامية حتى قادوا العالم بأسره لقرون عديدة ، ولا تزال الآثار المادية والمعنوية للحضارة الإسلامية باقية ودلائل إسهاماتها في النهضة العلمية والازدهار الكوني المعاصر خير شاهد؛ إذ هي وليدة النهضة الفكرية للمسلمين والتربية الإيمانية والقيم الأصيلة التي ينبثق عنها التطور العمراني والرقى البشري .

إن الالتزام بالمبادئ والتشريعات الإسلامية قد أهل المسلمين لقيادة المحيط العالمي لقرون عديدة فبنوا حضارة عريقة احتوت نظاما وتشريعات إسلامية سياسية واجتماعية لم تمتلكها البشرية في طريقها الطويل ، هذه التشريعات تتسجم مع واقع الإنسان وطبيعته ، ومع نظام الكون ، وقد سبقت هذه الحضارة غيرها في المباحثات الفكرية ، وأسست دعائم العلم التجريبي التي قامت عليها النهضة الأوروبية مؤخرا ، كما فانت كل الحضارات . السابقة واللاحقة . في العلوم الاجتماعية والشرعية وسائر العلوم النظرية ، وبنيت صرح العنوان ، وشيدت البنى التحتية للدول الإسلامية التي كانت قبلة أنظار العلماء والباحثين ، وهي في كل ذلك تخوض صراعا في الأمم الأخرى ، غير أن هذا الصراع لم يكن له بالغ الأثر على حياة المسلمين ورفقيهم الحضاري ؛ لأنهم كانوا متمسكين بمنهج الإسلام الذي يمددهم بالانتماء والإحساس بالذات ، ويدعوهم إلى المحافظة على ما تحملوا من أمانة أسلافهم برغم عداوة أهل الكتاب ومن والاهم للإسلام والمسلمين التي لم تنته ، وظلت مستمرة منذ اتصالهم بالوحي المحمدي في المدينة المنورة ، مروراً بدور الكنيسة في الحملات الصليبية التي شنت عسكرياً على بلاد الإسلام ، ثم محاولة الاستغراب الفكري الثقافي ، تغريب العقل الإسلامي لطمس هوية الإسلام .

وقد استخدمت الكنيسة التي تبنت هذه الحرب فكرياً وسائل فكرية بدلا من آلة الحرب ؛ فدعمت الموضوع الاستشراقي الذي يسعى إلى إبعاد المسلمين عن دينهم بالتشكيك في أصوله ، والطعن في أساسياته ، فظهرت للوجود دراسة استشراقية

مغرضة تشكك في ظاهرة الوحي وأخرى حول القرآن الكريم ، فمنهم من قام بأبحاث يائسة من خلال الدراسة التاريخية للسور مقترحا أن ترتب ترتيبا يغير ترتيبها في المصحف<sup>19</sup> والوقوف على نشوء النص وتحقيق بشريته لكن هذه الدراسات بنيت على الاعتقاد والظن وتقديم النتيجة على البحث ، فهي لا تنهض أمام التمحيص و التحقيق ، ونتيجة لعدم نزاهة البحث و التخبط في المنهج يقع أصحاب هذه الدراسات في التناقض ، ثم لا يملك إلا أن يعترف في موضوع من كتابه بأن القرآن بتنسيق سوره وآياته وجمله وكلماته هو من عند الله ( ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا ) ( سورة النساء 82 ) فيذكر أن ترتيب السور (( لم يكن من قبيل الصدفة ، لكنه نتيجة روابط أدبية . للأسف لا يمكننا تحديد هذه الروابط ))<sup>20</sup> وحيث أن الدراسة المذكورة قامت على تحليل النصوص تاريخيا بغية تحديد زمن نزولها ، والجذور المستقاة منها اقترح هذا المستشرق أن يوضع للسور القرآنية ترتيب جديد وفق التسلسل الزمني لنزولها ، ثم عاد لينسف مقترحه باعترافه أن الترتيب الحالي للسور لم يأتي اعتباطا بل جاء وفق حكمة دقيقة وتنسيق معجز يظل البشر عاجزا عن الإتيان بمثله ، مما حدى بهذا المستشرق إلى القول (( للأسف لا يمكننا تحديد هذه الروابط ))<sup>21</sup> .

إن معظم المستشرقين هم من طبقة رجال الدين أو من خريجي معاهد وكليات اللاهوت ، فهم جزء من مجتمعاتهم التي تفرض عليهم استخدام الوسائل والأساليب التي تناسب أهدافهم ودوافعهم ، فلم يتركوا في المعرفة مجالا إلا خاضوا غماره، وأنشأوا المؤسسات العلمية التي تعنى بدراسة الموروث الثقافي والديني للشرق ، كما اهتموا بإنشاء الموسوعات العلمية الإسلامية، وتأليف الكتب التي تبث السموم الفكرية تحت ستار المنهجية العلمية ، فأنجزوا آلاف المطبوعات إضافة إلى عقد المؤتمرات والندوات التي خرجت بالإستشراق من دوره التقليدي في العصور الوسطى إلى مرحلة

1 الكتاب يمثل دراسة تاريخية أجراها المستشرق الألماني تيودور نولكه على النص القرآني وسماها "تاريخ القرآن وفيها يحاول تحليل النصوص والآيات تحليلا تاريخيا ليصل إلى زمن تأليفها أو إنشائها على حد زعمه لأنه يرى أن القرآن من تأليف محمد p

2 ينظر تاريخ القرآن . تيودور نولكه . ترجمة جورج تامر . منشورات الجمل . بغداد . ط4 . 2008 م . ص 275

تعميق الفكرة والتوسع فيها، لاسيما بعد أن بنت أوروبا نهضتها الصناعية والعلمية وأصبح فيها العديد من الجامعات ومراكز البحث التي تتعهدا الحكومات بالتأييد والدعم والإنفاق عليها .

ومن الملاحظ أن جل المستشرقين عندما يتطرقون إلى الموضوعات الحساسة في الإسلام يحاولون جهد إمكانهم ردها إلى غير أصلها ، كما أنهم يحاولون لي النصوص القرآنية وتطويع المعاني لتوافق ألفاظا عبرية ومن ثم يتسنى العودة بها إلى أصل يهودي<sup>22</sup> .

وأحيانا يرون أن القرآن من نسج خيال محمد p لا سيما إذا اضطر إلى تأييد بعض المواقف بوحى خاص، كادعائهم أن الآيات الأولى من سورة التحريم هي من تأليف محمد p نفسه؛ حين باشر أمته مارية في خيمة حفصة التي انزعجت لذلك حينما لاحظت الموقف فألبت نساء النبي عليه مما أدى إلى زعزعة الثقة في نفوس أتباع النبي p فاضطر إلى اختلاق آيات تبيح صنيعه (( ولا بد من أن غلطة قائدهم قد سببت بين المسلمين اضطرابا شديدا، وإلا لما كان اضطر إلى تبرير موقفه بوحى خاص ))<sup>23</sup>

ومن ذلك أيضا قولهم في تحريم قتل الأبناء ووأد البنات (( إن النبي p دفع إلى هذا التحريم بحنيه إلى الذرية بعد أن صار لطيفا في طفولته ))<sup>24</sup> ولعل في مثل هذا الهذيان ما ينبئ بأن المستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها ، ونتجة وصل إليها مقدما، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك، فتأتي كتاباته بعيدة عن الموضوعية، تفتقر إلى النزاهة والحياد فضلا عن خلوها من الأمانة العلمية ، لاسيما أن منهم من ينتقي بعض الأحداث و القضايا ليكتب عنها ويهمل غيرها ليشكك فيما هو مسلم به في التاريخ الإسلامي، مستندا إلى المراجع الضعيفة التي لا يعول عليها في البحث

---

1 يقول نولدكه في تاريخ القرآن في سورة الفاتحة : (( إن الجزء الأكبر منها ينحدر من أصل يهودي )) . ص

100 ، وفي لفظ " المثاني " من قوله تعالى : (( ولقد أتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم )) ( سورة الحجر 87 ) يقول : ( إنها تتصل بالكلمة اليهودية مثا و الأفضل القول بالكلمة اليهودية الأرامية مثنينو بمعنى التقليد ) . ص 103 ومثله الكثير من التخطيب المبني على جرف هار

2 تاريخ القرآن . ص 195

1 إرادة التغيير في الإسلام . صابر طعيمة . مطبعة الاستقلال الكبرى . القاهرة . ط 1 . 1968 . ص 328

العلمي فيجعلها أساسا لبحثه، وهم مع ذلك لا يتورعون عن اتهام الدراسات العربية والتاريخ للعلوم والمسائل الإسلامية بعدم الموثوقية ، وعدم الاستناد إلى المصادر الأصلية ظنا منهم أن كتاباتهم أقرب إلى المنهجية وأوثق (( إن كتابات التاريخ العربية تظهر أيضا واثقة بما تأتي به حتى لو لم تستند إلى وثائق، وهذا غير مقبول في الكتابات الغربية المماثلة )) 25 .

ومنهم من يقوم بإسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الأولى للإسلام فيفسرها في ضوء مشاعره وتجارب وخبراته الخاصة وواقع حياته ، ووفق تصورات وسلوكيات مجتمعه ، فمحاولات إلقاء الرؤى الثقافية المعاصرة على الإسلام منهج لا يمكن التسليم به علميا؛ لأنه مجرد إسقاط تاريخ لرؤية ثقافية حديثة تتجلى في كتابات المستشرقين كتفسيرهم ظاهرة الوحي وفق نظرية التحليل النفسي التي أخذت مجالها في الدراسات النفسية والاجتماعية في العصر الحديث ، وهي تقضي بأن النبي p عندما يقرأ القرآن على الناس يكون في حال يضعف فيها الوعي الخارجي ويعمل العقل الباطن فينشط اللاشعور، ويأتي الأسلوب مغايرا لأسلوبه حال يقظته العقلية الكاملة ووعيه الظاهر، ومن ثم يأتي أسلوب القرآن مغايرا لأسلوب الحديث . ومنه أيضا وصفهم بيعة الصديق بعد وفاة النبي p بأنها سلب لإرادة المسلمين واغتصاب للسلطة قام به بعض أكابر الصحابة ، وهذا أمر مخالف للواقع أتوا به قياسا على أنفسهم وما يدور في مجتمعاتهم من صراع على السلطة والزعامة من خلال الديمقراطية المزيفة التي تدعي نزاهة الانتخابات وحرية اختيار الرئيس ، بينما يفند واقعهم ذلك ، إذ إن الوصول إلى الرئاسة مرتين بكسب الأموال التي يتم بها شراء الأصوات وإسكات المعارضين كما تخبر بذلك الكتب المؤلفة في هذا الشأن 26 .

ومنهم من يتهم المسلمين بالتحريف وإجراء التعديلات على التاريخ الإسلامي ، وخاصة ما يتعلق منه بحياة النبي p ظنا منهم أن السيرة العطرة تم انتقاؤها وتهذيبها

2 تاريخ القرآن ص 346

1 ينظر : المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي . عبد العظيم الديب . كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر عدد 27 . ص 99 . 100 بتصرف

وحذف كل ما هو مستهجن منها ؛ لأن ذلك ليس بعسير على كتّاب المسلمين، وأنه (( من السهل أن تطرأ تعديلات منحازة على الآثار المنقولة التي تتعلق بشخصيات بارزة ، لا سيما مؤسسي الأديان وذلك لأسباب شخصية أو سياسية أو عقائدية ، ونظرا لأن الدوافع لا تبرز إلى وضوح النهار إلا نادرا ، ولا يسهل تحديد المدى والشكل والمنحنى الذي تم فيه التعديل سيحتاج الكشف عن أفضع التحريفات التي حلت بسيرة النبي (p بعد إلى عمل عقود من الزمن ))<sup>27</sup> فهذا الجزم والإصرار على تحريف السيرة منشأه ما تأصل في نفوسهم من إمكانية تحريف الأديان والتصرف في النصوص وفق الدوافع والأهواء .

على أن منهم من كان منصفاً معتدلاً في تفكيره أدى به التبحر في علوم الإسلام إلى كتابات عادلة تنصف الإسلام والمسلمين ، ومنهم من أدى به الاشتغال بالموروق الشرقي إلى نشوء طابع التفهم لديه القائم على احترام الذات من خلال احترام الآخرين، ومنهم من اعتنق الإسلام عن اقتناع كامل بعد رحلة طويلة من الشك إلى اليقين .

ومثلما دعمت الكنيسة الإستشراق لمحاربة الإسلام بالقلم وتشويهه بتزييف قيمه ومبادئه لدى الغربيين حتى ينفروا منه، فقد تبنت بالرعاية والدعم حملات التبشير بمبادئ النصرانية المحرّفة فأرسلت طلائع التنصير تجوب أرجاء العالم تبشر بفكر المسيح المزيف وتحاول غرس عقيدة التثليث وإبعاد الناس عن التوحيد الذي ينادي به الإسلام لا سيما في أفريقيا التي عرف الإسلام طريقه إليها منذ هجرته الأولى ، والتي يزداد فيها عدد معتنقي هذا الدين كل يوم .

وقد دعت الكنيسة إلى تعلم القرآن . كتاب الإسلام . و السنة النبوية ، وعلوم العربية وآدابها باعتبارها لسان هذا الدين ، وسخرت إمكاناتها وما بوسعها لتحقيق ذلك؛ فاتخذت المعرفة بالإسلام وسيلة لحملات التنصير التي انطلقت إلى البلاد الإسلامية لخلع عقيدة المسلمين وزرع السموم المؤدية للتشكيك في أصول الدين .

إن الحقد الدفين الذي تكته الكنيسة وأذناها للإسلام جعل صراع الإسلام مع الحضارات والأديان من النفير الذي لا ينتهي لا سيما في عصرنا الحاضر ، فبالرغم من أن مفكري المسلمين يحاولون نقل هذا الصراع إلى ساحة الحوار الهادف المبني على التسامح ومحاولة فهم الآخر واحتواءه، فإن الغرب يواصل التهجم على قيم الدين ومقدساته من خلال وسائل الإعلام التي توظف للتكالب على الإسلام ومحاربته بالتشكيك في مصداقية القرآن ورده إلى أصول يهودية ونصرانية تارة، أو بإنكار ظاهرة الوحي واعتباره نوعا من الهوس النفسي، أو بالطعن في السنة النبوية وردها إلى الخلاف الطائفي الذي نشأ إبان الفتنة، وما يروج له الغرب هذا الأيام من التهجم على نبي الإسلام ﷺ بالرسوم الساخرة التي تزعم أنه زير نساء، أو تظهره بمظهر الراعي للإرهاب ، وغير ذلك من الإسفاف والزبد الذي يذهب جفاء أمام التمهين العلمي ، ويؤكد صدق سيرته ﷺ .

إن الكنيسة تمارس ما يسمى بالتبشير لدفع الناس إلى اعتناق النصرانية مستغلة عناصر الجهل والفقر والمرض في الأمم بإقامة شبكة من مؤسسات الرعاية الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والصحية لأتباعها ومعتقي ديانتها ليس من أجل الاهتمام بهم، وإنما لأجل تعلقهم بالمسيحية لاسيما في غياب هذه الخدمات والشبكات والمؤسسات والحيوية والضرورية في المجتمعات النامية بما يحتم على من يريد العيش أن ينضم إلى الكنيسة ويستجيب لدعايتها ويهتف بشعارها؛ لأن المسيحيين لم يأتوا لسد الجوع و الفقر بل غايتهم الاستيلاء الروحي وفصم عرى الإسلام في النفوس .

إن مسألة التنصير والتبشير ليست من الأديان السماوية في شيء، بل هي مسألة اختلقتها الكنيسة للهيمنة على الأمم والاستحواذ على مقدرات الشعوب ، فاتخذت مسيحية العصر من الجهل والفساد وسوء الحال الاقتصادية في الدول الفقيرة والنامية لا سيما الأفريقية منها ذريعة لشن حرب صليبية جديدة على الإسلام بسلاح التنصير في عمق المجتمعات الإسلامية بحجة نشر المسيحية ودعوة الناس إلى المحبة ، تناسيا أن يسوع لم يبعث مبشرا ونذيرا للعالمين ، ولم تتجاوز دعوته حدود اليهود الغارقين في الشرور لإنقاذهم منها .

ولعل من أبرز آثار الغزو الفكري السائد الآن والذي استخدمه الغرب سلاحا في التكالب على الإسلام ما يبيث من سموم تهدف للقضاء على الإسلام وتجريد المسلم من هويته برفع الشعارات المنادية (( بتجزئة الإسلام وتبعيضه بين إسلام أصولي ، وإسلام سياسي ، وإسلام صوفي ، وتفصل بين الدين والسياسة ، وتخذل روح الجهاد والاجتهاد والتأصيل ))<sup>28</sup> وظهور تيار يدعو إلى العلمانية وينادي بفصل الدين عن الدولة التي يمثل المواطن كيانها ، وقد تناسى هؤلاء أن العقيدة الإسلامية تربط كل مجالات الحياة بالإيمان بالله عز وجل ، فما من موضوع علمي إلا وله صلة وطيدة بهذه العقيدة ، وبالتصور العام الذي جاء به الإسلام لخالق الكون والإنسان ، وربما تأثر عدد من المفكرين والعلماء والسياسيين المسلمين بالثقافات الداخلية الغربية، فأعربوا عن عشقهم للمبادئ الغربية المتمثلة في الديمقراطية المزيفة وحقوق الإنسان الكاذبة الملتفة بكساء الحرية، وراحوا يرددون في صداها ويجدفون في تيارها ظنا منهم أنها تؤدي إلى الازدهار الحضاري والرقى العقلي، وليس لاستئصال الإسلام من نفوس المسلمين .

إن شعار العلمانية الذي تلوح به أوروبا مفتاحا لرقبها الحضاري إنما هو شعار مغلوط لا يوائم الإسلام ولا المسلمين؛ لأن أوروبا لم تعرف النصرانية الحقيقية أو الدين الذي جاء به موسى<sup>p</sup> بما أحدثته يد التحريف فيها من تغيير ، ومن ثم فقد ظهرت الدعوة إلى فصل الدين عن وظائف الحياة ، غير أن ما ينطبق على أوروبا لا ينطبق على ديار الإسلام؛ لأن الإسلام بحفظ الله له من التحريف والتبديل جاء بتشريعات سامية تكسب المسلم خلافا نفسية ومكاسب أخلاقية نفسية تكون أساسا تُبنى عليه العلوم. إضافة إلى أن الدين قد فتح أمام الأنظار كتاب الكون للتأمل والعمل. وبذلك بنى الحضارة الإسلامية التي لم ترتق لمثلها الأمم ؛ لكونها قائمة على أصول دينية سليمة وغير محرفة (( فالحقيقة الاعتقادية الإلهية هي الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية ، وإنسان هذه الحضارة

---

1 كتاب الأمة . المستقبل للإسلام . أحمد علي الإمام . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . قطر . ط 1 . 1995 م .

بالدين فكر وبالدين تحضر وبالدين أنتج حضارته ((29 بخلاف الغرب الذي وجد النصرانية المحرفة تعيق طريقه في التقدم والنهضة، فنادى بقصر الدين على الشعائر التعبدية بعيدا عن المناحي الأخرى من سياسة واقتصاد واجتماع، ثم سعى في محاولات جادة إلى زرع هذه الفتنة بين المسلمين؛ للحيلولة بينهم وبين مصدر الهداية وسر سعادة الدنيا والآخرة .

إن تكالب الأمم اليوم على الإسلام بمثل هذه النداءات والشعارات الإلحادية يجسد في حقيقته نوعا من الإعجاز الغيبي لهذه الشريعة، وهو دليل على موثوقية غيبيات القرآن العظيم وصدق تنبؤات الرسول الكريم حين يقول في الحديث الذي رواه ثوبان مولى رسول الله ﷺ (( يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها. قال قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن. قال قلنا وما الوهن؟ قال حب الحياة وكراهية الموت ))30 هذا ما يشهد له حاضر الأمة وواقعها المعاش، فما يسميه أعداء الدين تحالف الأمم هو تداع وتكالب على المسلمين ، وقوات التحالف التي تجمعت لقتال المسلمين في العراق ومن قبله في فلسطين وكشمير والشيشان وأفغانستان وغيرها فضلا عما تحدثه من زعزعة الأمن والاستقرار في الساحات الأفريقية وما تخطط له الآن من غزو لإيران ما هي إلا أدوات للتكالب على الإسلام. ، تحالفت من كل أفق لتسير بخطى تباركها الكنيسة وجمعها وحدة الهدف ، والتقت نواياها على تدمير الإسلام فاتحدت جيوش الدول الأوروبية والأسترالية والآسيوية فيما يناهز أربعين دولة تتزعمها حاملة لواء الأمن والأمان العالمي أمريكا ، معززة بالفكر الصهيوني وتعاليم اليسوع ، تتقمص رداء القيم الإنسانية الزائفة ومبادئ حقوق الإنسان ، والديمقراطية المحمّلة على

---

<sup>1</sup> روح الحضارة الإسلامية . محمد الفاضل بن عاشور . تعليق وتقديم محمد عمارة نهضة مصر للطباعة والنشر .

ط1 . 2003 . ص 11

2 الحديث أخرجه أبو داود في سننه . تح محمد حي الدين . دار الفكر . د.ت . باب تداعي الأمم على الإسلام .  
114/4 ( المكتبة الإلكترونية . المكتبة الشاملة )

صفيح الدبابات و متن المقاتلات لتشن حربا صليبية عصرية بأحدث الأسلحة الفتاكة فتأتي على الأخضر واليابس في ديار الإسلام .

### اتهام الإسلام بالجمود :

إن التكالب المسمى التحالف من قبل المسيحية على الإسلام قد استغلّ حال المسلمين اليوم وما هم عليه من الضعف والتفرق فشن حرب الآلة والفكر والقلم واستخدم كل الجبهات لإيقاف النزوح البشري نحو هذا الدين واستئصاله من النفوس بمسحنة العقول وحشوها بالمبادئ الزائفة، ولعل الأجر بالوقوف عليه في هذا الشأن

لبيان فساده هو شبهة اتهام الإسلام بالجمود وعدم مواكبة النهضة العلمية وتطورات العصر، وإعاقة التفكير الإنساني بما تضيفه نصوص الشريعة من القداسة الدينية على الشؤون الحياتية مما يصادم التفكير الحر، بدليل تأخر المسلمين وما هم عليه من ضعف وجهل، وهذا ليس من الحق في شيء، إذ إن المنطق العلمي والواقع المعيش يرفض أن ينسب ما عليه المسلمون من تأخر للإسلام، لأن الجمود الديني يعني أن تكون النصوص تدعو للتحجر والجهل، ولا تلتفت إلى العقل ولا تأبه به، ونصوص القرآن \_ كتاب الإسلام ودستوره التشريعي \_ على خلاف ذلك، فهي تخاطب العقل، وتأمّر بالعلم، وتمتدح العمل والعاملين، وتذم الكسل، وتنحى باللائمة على المتواكلين الذين يعيشون عالة على غيرهم، كما تمنع التبتل والرهبة لتوائم بين الدين والدنيا والعبادة والعمل ( فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فالأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ) (سورة الجمعة 10) .

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا ..... وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل  
ولنا أن نتساءل هنا ما المقصود بالتقدم الذي يعزى إلى غير الإسلام ، و تقف  
نصوص الشريعة الإسلامية حاجزا يعوق الوصول إليه ؟

إن التقدم لا يعني الانحراف عن نهج الدين والتحلل منه، فهو نتاج علمي ومادي يأتي من تفاعل العقل البشري واحتكاكه بالماديات الكونية ، وينمو على الدوام في إطار آدمية الإنسان ووفق ما توصلت إليه العقول ، ولذلك فهو نوعان : بشري ومادي. فالبشري يكون في الخصائص الإنسانية بحيث يشمل الجانب الاجتماعي المتمثل في السلوك المنظم والوعي الاجتماعي، وهو يعتمد على إنسانية الإنسان وخصائصه الروحية ، وخلق وسلوكه وانتمائه الجماعي، وإحساسه بالمسؤولية تجاه الله والآخرين ، وهو لا يحتاج إلى علوم تطبيقية ولا إلى معامل تجريبية بقدر ما يفترق إلى منهج هداية وإرشاد عن طريق قوانين وأحكام تشريعية تؤمن بالعدل وتعمل وفق الحق والمساواة ، فترتفع بمستوى الإنسان ، وتتمى فيه جانب الوعي والإدراك وحرية الإرادة في العمل ، بينما يكون التقدم المادي فيما تبلغه الأمم من رقي في سلم المخترعات ومجال الآلة والتقنية الصناعية التي لا تصلح أن يطلق عليها اسم الحضارة ما لم تقترن بجانب السلوك؛ لأن هذا النوع من التقدم سرعان ما يزول

بزوال المادة التي هي قوامه ومعتمده ، فالحضارات المقامة على البترول مثلا سينهار صرحها بنضوب معين البترول ، والأخرى المقامة على نوع من الصناعات يأخذ نجمها في الأفول بكساد سوق منتوجاتها ، إضافة إلى ما يحيط بها من عوامل الانهيار كتدني الأخلاق وارتفاع مستوى الجريمة ، وبهذا يتضح أن هناك فرقا بين حضارة مهلهلة تُبنى على أساس تزول بزواله ، وأخرى باقية بقاء أساسها المتين وهو الدين المتهم بالجمود ( أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله و رضوان خير أمن أس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ) (التوبة 109) ثم إن الحقيقة التي لا مرأ فيها أنه من الممكن أن تتقوض الصناعات والعلوم المادية ، لكن الدين بقيمه يبقى راسخا في النفوس بقيمه ومثله ومبادئه ما بقي الانسان على وجه الارض ، يتفاعل مع الحضارات ويتناسب مع ثقافات العصور زيادة ونقصانا بحسب أحوال الزمان والمكان ، لكنه لا ينمحي أو يزول كالحضارات المادية .

إن المستقرئ لتاريخ البشرية على امتداد أعصره يلحظ أن التقدم الذي تبني عليه الحضارات إما تقدم مادي أو تقدم أدبي سلوكي ؛ فالاول معتمده التفكير العلمي المحض ، والثاني يقوم على السلوك الخلقي، غير أنه لا جدوى للأول بدون الثاني؛ لأن نتائج الأول تضيع وتشتت بفقدان الثاني ، فإنجازات العلم لا تؤتي ثمارها في ظل غياب الأخلاق وانعدام الآداب، و لا تقوى على النهوض أمام موجات الانحطاط الخلقي ، ومن ثم فإن الاسلام باعتباره دين الحضارة ينصب تركيزه على بناء الإنسان قبل بناء الاوطان، فهو يريد لمعتقه أن يكون مستقيما متزنا في سلوكه وعواطفه وأنماط تفكيره. ومن ثم يكون باغيا للخير ساعيا إليه ، حاثا عليه وفق سلوكه العلمي والعملية؛ بحيث تنعكس آثار تلك التنشئة على مستوى التفكير والتعلم لديه حتى يصل إلى مرحلة النضوج الفكري المقترن بإنسانية العواطف والوجدان، مع التجرد من التعصب للنفس أو الجنس أو اللون (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (الحجرات13) و بذلك تصير التقوى بمفهومها الواسع مطية تُعتلى لتبليغ غاية أشمل وأعم ، هي سعادة الدنيا والآخرة ، ومن ثم فإن الإسلام منذ انبلاج فجره دعا إلى نوعي التقدم المادي والأدبي معا ، ووجه العقول نحو الكتاب المنظور للعلم ،

ولفت الأنظار تصرّيحاً أو تلميحاً إلى كل شيء في الكون، وهو في كل ذلك يربط العلم بالعمل المحاط بالسلوك القويم والآداب الحسنة ، فتحدّث عن أشياء منذ أربعة عشر قرناً ، يفتخر العلم الحديث بالتوصل إليها ويزعمون ابتكارها الآن ، ومن هنا فإن اتهام الاسلام بالجمود وعدم مواكبة الحضارة هو في الحقيقة محاولة لإبعاد المسلمين عن دينهم ونشر العلمانية بينهم حتى يسهل تفريقهم، وتتسنى السيادة عليهم، ويكفي في الرد على هذا الاتهام أن الاسلام بتعاليمه السمحة وتشريعاته السامية لم يكن فكرة بشر، ولم يأت من طريق الخلق حتى يكون قاصراً عن مواكبة الحضارات، بل إن كتابه (القرآن) الذي حوى تشريعات الهداية هو الكتاب (( الذي يتغذى به ملايين الناس ويهتدون بتعاليمه لا بد من أن يكون قد استقى من ملء فياض ))<sup>31</sup> فهو وحي من الله خالق الإنسان، الذي سخر الكون لخدمته، ومهد ما على البسيطة لصالحه، وأمره باستخلاف الأرض وإعمارها (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور ) (الملك 15) فما كان الله بعد ذلك ليكلفه بتشريعات تدعو للتخلف الفكري، ولا يعقل أن الله تعالى يسخر الكون للإنسان ثم يدعو للجمود والتكاسل عن طريق الأديان، بل كيف يطلب منه أن يكون خليفة الأرض ثم يمنعه من التجربة والاستكشاف والبحث للسير فيها وإعمارها ؟ ثم إن الاسلام لو كان عائقاً للتقدم الفكري وعقبة في طريق العلم ما جعله الله ديناً عالمياً. (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ( الأنبياء 107)

وإذا كان انطلاق الإنسانية نحو حياة علمية شاملة تسع كل مجالات الحياة وتشمل كل مظاهرها مركوزاً في أصله على الإنسان باعتباره مادة الحضارة التي لا تتم بدونها ، فإن الاسلام اهتم بهذا الأساس وهذب به بتعاليمه، وتعهده بحسن التربية والإرشاد والتوجيه نحو الجادة ليكون حجر بناء الحضارة والازدهار والراقي في المجتمعات البشرية انطلاقاً من تكريمه في الخلقة على سائر المخلوقات ( يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ) (الأنفطار 6\_8) وتكريمه بالعقل وتمييزه على سائر المخلوقات ( و لقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا

31 -تاريخ القرآن، المقدمة

تفضيلاً(الاسراء70) وبما أن صرح الحضارات أساسه التفكير، حيث يبني على أعمال العقول ونتاج تفكيرها، فإن الإسلام اهتم بالعقل وجعل المحافظة عليه من المقاصد الضرورية؛ لأن العقل من منظور الاسلام هو أساس الإنسانية وقوام فطرة الإنسان، ومناطق التكليف والمسؤولية، وأداة التقدم الإنساني والرفي الحضاري، ويكفي في التدليل على اهتمام الإسلام بالعقل أنه حرم تغييبه بالمسكرات والمخدر وكل ما ينأى به عن الواقعية ويجعله في عزلة عن الحقيقة، ولن تجد هذا في كثير من الأديان والشرائع السابقة للإسلام، بل إن المستقرئ لنصوص الشرائع السابقة يعدم أن يجد نصاً يفيد اتفاق تلك الشرائع السابقة على تحريم الخمر قليلها وكثيرها، ولن يقف إلا على إباحة الخمر مطلقاً بغير تقييد بحجم أو كيفية.

إن الذين يتهمون الإسلام بالجمود لم يمعنوا النظر في نصوص القرآن، ولم يتدبروا فيه، فالدارس لكتاب الله المتمعن في آياته يلحظ دون عناء أنها تناولت لفظ العقل بمختلف مسمياته واشتقاقاته ما يربوا عن مائة مرة، في حين أن النصوص المقدسة في العهدين عريت تماماً عن هذا اللفظ؛ لأن العقل لم يكن مقصوداً لذاته في التدبر والاعتبار وفهم الدين في الكتاب المقدس، لذا لم يعن به في توجيه الخطاب، بينما جعله القرآن مقصد خطابه منذ تنزل أوليات نصوصه (اقرأ باسم ربك الذي خلق)(العلق1) و اقرأ إن شئت في قوله تعالى في وصف المتأملين في ملكوت السماوات والأرض سعياً وراء الحقيقة وطلباً لفهم كنه أسرار الكون (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار)(آل عمران 190\_191) أو قوله تعالى ( أفلم يسروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)(الحج46) وغيرها من الآيات الداعية إلى التفكير والتأمل العقلي التي يوقن مستقرئها (( أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكير والتعقل والتدبر))<sup>32</sup> ومن ثم فقد حث الإسلام على طلب العلم المؤسس على

النظر والمشاهدة والتجربة، القائم على اليقين والحجة والبرهان ( وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ) (الداريات 20\_21) أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ) (الغاشية 17\_20) وحذر الإسلام من الجهل وبناء الحقائق على الظن ( قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ) (الانعام 148) ، ( إن يتبعون إلا الظن و إن الظن لا يغني من الحق شيئا ) (النجم 28) كما أن الدارس لنصوص القرآن الكريم يلحظ أنه لا توجد آية تحوي تصادما بين العلم والدين ، أو تشير إلى تناقضه مع مفهوم الدين ، بل إن مئات النصوص الواردة في الكتاب تحت على طلب العلم و مواكبة التطور والسعي وراء الأفضل لإدراك سعادة الدارين ( ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ) (البقرة 201) بل إن الاسلام قد جعل العلم عقدا تزدان به صدور العلماء ، فشرّفهم بقوله ( قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) (الزمر 9) ورفع منزلتهم بقوله ( شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ) (آل عمران 18) ( و ما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ) (فاطر 19\_21) بل شبّه العلم بالحياة والجهل بالموت فقال (و ما يستوي الأحياء ولا الأموات) ( فاطر 22) كما جعل مرتبة العلم في مرتبة السلطان فقال (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ) (غافر 35) فالإسلام المتهم بالجمود هو الذي حرر الازهان من الخرافة ودجل الكهان وأساطير الجاهلية، وهو (( رسالة الطبيعة البشرية أينما كانت ومتى وجدت ليهدئها الطريق السوي، ويجنبها الوهم والخرافة فيما تتجه إليه ))<sup>33</sup> فقد حرر مفهوم العلم ونقله إلى الحقيقة وأبطل ما سواها من الأساطير ( ما كان حديثا يفترى ) ( يوسف 111) ولم يرض لأتباعه التقليد الأعمى والاتباع المحض المبني على عدم العلم والإدراك والمعرفة بحقائق الأشياء (( وهذا ما يميز الإسلام عن سواه ، أي إن الإنسان لا يرثه عن الآباء والأجداد ، بل يكتشفه بنفسه عن طريق توظيف قدراته العقلية توظيفا كاملا، واكتشاف حقيقة العالم من حوله، وما يدل عليه كل

شيء في هذا الكون )) 34 فلم يرض الإسلام أن يكون المرء مقلدا في دينه دون أن يعي حقيقة هذا الدين الذي يعتنقه (( اغد عالما أو متعلما، ولا تغد إمعة فيما بين ذلك )) 35 ومن ثم عاب أسلوب الاقتداء على الذين لم يستعملوا عقولهم وما أودع الله فيهم من ملكات التفكير والإدراك لطلب الحقيقة فقال ( وإذ قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولوا كان آبائهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ) (البقرة 170) وقال أيضاً ( قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ) (يونس 78) .

وإذا كانت الحضارة هي محصلة التفكير البشري ونتاج العقول و ثمرة الجهود المحاطة بالعمل المنظم و السلوك السوي فإن الإسلام هو دين الحضارة فيما يدعو إليه من التزام العمل و التوجه نحو الابداع و الانتاج ، من خلال النصوص التشريعية التي تخاطب الفكر والإرادة والوجدان في الإنسان فتعكس آثار الخطاب على ميوله وعواطفه ، فيقبل بحواسه ومداركه نحو الخير ، وينبني تفكيره على السلوك القويم فتأتي إبداعاته ونتائج جهوده وتجاربه ومباحثاته العلمية بما فيه خير البشرية ، فقيمة البحث العلمي في الإسلام ترتكز على مجموعة من حوافز الخير الكامنة في نفس الانسان والتي غرسها فيه الإسلام لتعمل عملها في المجتمع ، وتؤدي أكلها بما يعود على المجتمعات بالنفع ، وبما يكفل حياة كريمة ، ومن هنا حرص الإسلام على أن يغرس في نفوس أتباعه الايجابية ، وينأى بهم عن العزلة الذاتية إيماناً منه بأن الايجابية والتفاعل الاجتماعي ، وحده هو الذي يصنع الحضارات؛ لأن بناء المجتمعات و القيم الحضارية لا يتم إلا بتكاتف جهود الجماعات ولا ينبني على المجهودات والمحاولات الفردية ، ولأجل هذا التفاعل والإيجابية اهتم الإسلام بإيقاظ الروح الجماعية وتقوية الروابط بين الافراد الذين يشتركون في المصالح والغايات ، من خلال صور العبادة الجماعية التي اقرها الإسلام والتي ترمي إلى توحيد اتلصفوف والتعاون على البر والتقوى ، وتعود على العمل الجماعي المنتظم .

34 - القرآن حرر الإنسان، إبراهيم الشهابي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط2، 1992م، ص 27

35 -ورد هذا الحديث موقوفا على عبد الله بن مسعود في مشكل الآثار للطحاوي، باب أغد عالماً او متعلما ص13

/ 340 ، حديث رقم 5344

إن اتهام الإسلام بأنه لا يرتقي إلى مستوى الحضارات الانسانية ولا يواكب التطورات العصرية بما تحويه نصوصه التشريعية من جمود هو امتداد لشبهات المستشرقين التي تحاول رد القرآن إلى أصول بشرية ؛ لأن الحضارة في مفهوم الغرب هي ظواهر سلوكية ترتقي بالمجتمعات ماديا وفق تطور الزمن ، وتعاليم الإسلام وتشريعاته ومبادئه \_ على حد زعمهم \_ لا تعدو كونها مجموعة من الافكار اخترعها محمد P من خياله الواسع، أو استمدها من التصاقه المزعوم بأهل الكتاب ، تقادم عهدها وانتهى أثرها الروحي والمادي بمرور الزمن ، ولم تعد تصلح أن تكون درجا يعتلى في سلم الحضارة ، أو يعول عليها في مواكبة التطور العلمي المستمر بدليل ازدهار الإسلام وسطوع شمس حضارته أيام ظهوره ثم تقاصرت أذيال تلك الحضارة وأفل نجمها ، فلم يعد للإسلام إسهام يذكر .

وبالتأمل في حال العالم اليوم وما ارتقى إليه الغرب من نهضة علمية مادية وتقدم حضاري رهيب في مجال العلوم الطبيعية والصناعية وعلوم الفلك لا يسعه أن ينكر ما عليه المسلمون من التأخر والجمود ، غير أن هذا الجمود كائن في المسلمين بما ارتضوا لأنفسهم لا في الإسلام، فالبعد الكامل للمسلمين عن تعاليم الإسلام وتشريعاته وما فيه من أدوات التوجيه العملي والعلمي التي تشدذ الهمم وتوجه الطاقات للانطلاق بها ، والبعد عن الإدراك العلمي الصحيح لحكمة تلك التشريعات هو مصدر هذا الاتهام ، فالمسلمون لما هجروا تعاليم دينهم وكتاب ربهم واستسلموا للجهل وارتضوا أن يقبعوا في غياهبه صاروا في التخلف، وسرى الجمود في عقولهم بما حشوها من الاباطيل التي ليست من الإسلام في شيء، والإسلام منها براء ، فهو دين الحضارة الذي (( ينطلق بالعقل في سعة العلم ويسيح به في الارض ، ويصعد به إلى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سرا من أسرارهِ في خليقته ، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته ))<sup>36</sup> ثم إن القائلين بجمود الإسلام تناسوا إن التقدم الحضاري الذي يصل إليه البشر في مرحلة من الزمن يأتي من طريق النضوج في الفكر ، و الانسانية في العواطف و الوجدان ، والالتزام بالسلوك القويم ، مع الارادة و التصميم وعلى الخلق و الابداع والابتكار ،

وهذه القواعد التي تتبني عليها الحضارة ليست قصرا على أمة من الامم بقدر ما هي متاحة للجميع ، فإذا تمسك بتأثيرها قوم ارتقوا إلى مشارف العلى ، وإن هجروها تركتهم إلى التخلف و الانحطاط ، ولذا فإنه ليس من الانصاف أن ينسب للإسلام ما عليه المسلمون في هذا الزمان؛ لأن الإسلام ليس مسؤولا عن ضعف المسلمين وسوء حالهم ، ولا عن ضعف المجتمعات وتفككها؛ لأن الإسلام تعاليم تعرف وتشريعات تطبق وقواعد تتبع. وإساءات فهمها أو إهمال إتباعها لا يبرر إسناد الخلل والقصور إليها ، ثم عن ما توصل إليه المسلمون من الازدهار الحضاري ، وما بلغوه من رقي في مجالات الابداع العلمي التي ارتادوها أيام كانوا لصيقيين بالإسلام، منتهجين لهدية خير شاهد على حركية الدين وفعاليته ، إذ بلغ المسلمون آنذاك شأواً بعيداً في النتاج العقلي والابداع المعرفي والتفكير الحر ، وارتقوا في المباحث النظرية وعلوم الفلسفة والسلوك ، وكان تفكيرهم مرتبطاً بتشريعات دينهم وما يدفعهم إليه كتاب ربهم فتعمقوا في البحث العلمي ، وقادوا مرحلة من التطور الحضاري في حين كانت الامم تغط في سبات عميق ، وكانت كل مظاهر الحياة المادية والاجتماعية في طور البداءة والتكوين ، ومن هنا يتضح جلياً أن الجمود واقع في المسلمين لا في الإسلام.

لقد صرح أن التقدم المتزن في مجالات الحياة لا يتم إلا بالسلام ، و لا يكون التأخر كذلك إلا في الاعراض عنه ، فالمسلمون لما أهملوا أحكام دينهم وتركوا تشريعاته صاروا إلى ما عليه و اقعهم الثقافي من التخلف و التأخر عن الركب الحضاري ، ونسوا أن (( الإسلام سبب تقدم المسلمين ، والإعراض عن تعاليمه والتهاون بأحكامه ، وسوء التخلق بآدابه هي التي سببت للمسلمين ما هم عليه من التأخر ))<sup>37</sup> فالإسلام سليم في جوهره ، لم يخالطه التحريف والخلل ، ولم تتقادم نصوصه عن مواكبة الحضارات العصرية ، لكن المسلمين هم الذين تقاصرت أيديهم عن ركب الحضارات ، و تقاعصت بهم الهمم عن تكب عباء التطور البحثي لا سيما في مجال الصناعات و العلوم التجريبية التي تشهد تقدماً رهيباً ، لذا فإن الحقيقة الماثلة أمام أعين المنصفين أنه لا بد من التفريق بين الإسلام في ذاته كدين سماوي تصلح تشريعاته لمواكبة التطورات العلمية على مر العصور ، وبين المسلمين

37 - روح الحضارة الإسلامية، ص 53

في وضعهم الحالي وواقعهم المعاش ؛ لأن المسلمين بالتخلي عن الإسلام فقدوا نهضتهم الفكرية ، ولم يعودوا قادرين على مواكبة النهضة العلمية ، والتمشي مع الأيديولوجيات الحديثة والتقدم التقني المذهل ، وصاروا بمعزل عن البحث والاستكشاف والتجريب العلمي ، فأضحى واقعهم الثقافي يعاني من التقليد والتبعية والفهم القاصر للذات مع عدم الالمام بالموروث الثقافي الاسلامي ، وانشغلوا بما غرس فيهم من أفكار هدامة ، تبناها واستبسלוها في الدفاع عنها ، فأدت بهم إلى مسالك الفرقة وصاروا شيعة وأحزابا يخربون بيوتهم بأيديهم ، فيقتل بعضهم بعضا ، ويكفر بعضهم بعضا ، وضاع الإسلام بين الجحود والجمود ، وبقي أتباعه اليوم بين فاقد للنقمة بنفسه وانتماءه القومي والديني ، منبهر بالغرب يدعو الى هجر الإسلام والانصهار في بوتقة الغرب ، وبين متفوق يقف حائلا بين المسلمين والاجتهاد والتطور العلمي ، ويرى في الاخذ بأسباب التطور ومحاولة تحرير الفكر ابتداعا مخلا بالدين ، متجهلا انهدين البذل والعطاء والخلق الادعاء ، فبين هذا وذاك ابتعد المسلمون عن تعاليم الإسلام بُعد المشرقين ، فصاروا في حال من التخلف والانحطاط ، وحل الفتور في كل المسلمين مما أوهم الكثيرين من مفكري الغرب وأتباعهم الذين تقاصر فهمهم عن نصوص الشريعة الاسلامية إلى أن هذا الفتور والجمود هو من خصائص الإسلام ،

و إذا كان هذا حال الأمة التي نعتها الله بقوله ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تؤمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر ) (آل عمران 110) فإن الواقع المعاش يحتم النظر في التحديثات المختلفة التي تواجه الأمة في كل مجالات الحياة ، لا سيما مجال الاقتصاد و العلوم الصناعية ، حيث صرنا \_ أمة الإسلام \_ إلى ركود إقتصادي وثقافي (( يفرض علينا القيام بمراجعات شاملة لكل مرافق حياتنا الفكرية والسلوكية ))<sup>38</sup> من خلال النظر الثاقب في أسباب هذا الجمود الذي أدى بالمسلمين إلى التأخر العلمي و الحضاري ، ثم وصف الدواء الناجح لحل المشكلة جذريا بدلا من التعلل بالماضي التليد .

38 - من ملفات الذاكرة الثقافية، مواقف، محمد عابد الجابري، الكتاب الخامس والعشرون، ط1، 2004م، ص 12

ولعل من أسباب تدني مؤشر الحضارة لذا فالمسلمين في الازمنة الاخيرة :

انحدار مستوى الثقافة في الاوساط العامة نتيجة توالي الحركات الاستعمارية على بلاد الإسلام ، و ما يتبع ذلك من تقييد الحريات ، و قتل روح التعلم ، ونشر الجهل بين الناس ؛ لا سيما الجهل الديني المفضي إلى هجر قواعد الشريعة و استبدالها بالقوانين الوضعية ، مما أدى إلى فساد الأخلاق ، و انهيار القيم و المثل التي كان عليها السلف ، ناهيك عن ضعف الايمان في النفوس و انتشار الرذيلة ، و ترك الامر بالمعروف و النهي عن المنكر حتى صار الحال إلى ما تنبأ به الرسول الكريم p بقوله (( لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر و لتأخذن على يد الظالم و لتطأرنه على الحق أطرا و لتقصرنه على الحق قصرا ))<sup>39</sup> و هذا من وجوه إعجاز هذه الشريعة ؛ لأن ترك الأمر بالمعروف يفضي إلى انتشار الفوضى والفساد ، وضياع الحقوق ، واستشراء الجريمة والبطالة مما يشل التفكير ويعيق حركة التقدم .

ويمكن أن نعد من تلك الأسباب عدم الوعي الإقتصادي والسياسي لدى المسلمين ، إضافة إلى الفقر الناتج عن السيطرة على ممتلكات الشعوب وعدم توظيفها توظيفا علميا يعود بالنفع على المجتمعات .

من الأسباب التي تلوح أيضا للمتأمل في حال المسلمين : الجمود على القديم ، وفقدان روح المغامرة خشية الفشل وخيبة الأمل فتتزعزع الثقة في النفوس، وتنتجع فيها عقدة رؤية الكمال في الآخرين فتندفع إلى التقليد وتترك الاجتهاد، والتجديد .

إن تكالب الأمم على الإسلام قديما وحديثا جعل من المسلمين مادة هذا الصراع وموضوعه الطويل، وذلك يحتم القيام برد فعل تجاه هذا الصراع ؛ لكبح تداعي الأمم

39 \_ الحديث أخرجه أبوداود في سننه، باب الأمر والنهي من طريق عبد الله بن مسعود، 412 / 11، حديث رقم 3774 ، وهو بتمامه ((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ تَمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْعَدُوِّ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ». ثُمَّ قَالَ (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) إِلَى قَوْلِهِ (فَاسْقُونِ) ثُمَّ قَالَ « كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ وَلَتَطْرُفَنَّ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرَنَّ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا ))

على المسلمين ، ولن يتم هذا إلا بالعودة الصادقة إلى الإسلام ، والتطبيق العملي السليم لمنهجه الصحيح الذي يربط الماضي بالحاضر ، ويقرن المعرفة بالطاعة ، ويدعو إلى البحث والاستكشاف ، والاخذ من كل علم بسبب ، وفتح أبواب الاجتهاد أمام العلماء الساعين إلى إعداد الأمة بالعلم والعمل تحت راية إسلامية واحدة ، بعيدين عن التشرذم والطائفية عملاً بقوله ρ (( الحكمة ضالة المؤمن إن وجدها فهو أحق بها ))<sup>40</sup>

كما يكون ببعث العزائم وشحن الهمم للعمل على الرقي العلمي بعقلانية معاصرة من خلال فتح أبواب البحث والتجربة أمام الباحثين ، وتطوي ، و الاهتمام بالناشئين لمحاولة خلق جيل واعٍ يحمل على عاتقه إصلاح الأمة ، و دعمهم برصد الاموال لخلق التطور الحضاري ، و محاولة تذليل الصعوبات و تيسير سبل التعلم اتباعاً لمنهج الإسلام و اهتداءً بقوله تعالى ( قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون ) (سورة الزمر 9) وقول رسوله الكريم ρ (( طلب العلم فريضة على كل مسلم ))<sup>41</sup> .

## الشرعية صالحة لكل زمان و مكان :

تميزت الشريعة الإسلامية بمميزات جعلتها تلائم حياة البشر وتواكب تطورات العصور ، واختار الله الإسلام ليكون خاتماً للرسالات ومهيماً عليها ، فلم يرتض لخلقه ديناً غيره ، قال تعالى ( و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في

---

40 - أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم 2611، 9 / 103

41 - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب طلب العلم فريضة، 4 / 177،

الآخرة من الخاسرين ) (سورة آل عمران 85) وقال تعالى ( إن الدين عند الله الإسلام ( سورة آل عمران 19 ) وختم الرسالات السماوية يعني انقطاع الوحي من السماء ، فلا تبديل ولا تصحيح في نصوص الوحي ؛ لأن التشريع الاسلامي الذي ارتضاه الله دينا لكل الخلق لابد أن يكون متصفا بالكمال لا يعتريه النقص ، ولا تتقدم نصوصه بمرور الزمن ، هذا التشريع لابد أن يكون متكاملا في ذاته ، يفيء بمتطلبات الحياة وحاجة البشر ، ويصنع سعادة الدارين بما تتصف به نصوصه من شمول وعموم ومرونة، ولا تقف عاجزة عن صنع الحضارة وإسعاد الخلق إلى يوم القيامة، وأي قول بخلاف هذا هو اتهام لله تعالى بالقصور عن معرفة مصالح خلقه وما يلائم شؤون الحياة إلى يوم المعاد ؛ لأن (( المصالح التي لا تقوم بها أحوال العبد لا يعرفها حق معرفتها إلا خالقها وواضعها و ليس للعبد بآ علم إلا من بعض الوجوه ، والذي يخفى عليه منها أكثر من الذي يبدو له فقد يكون ساعيا في مصلحة نفسه من وجه لا يوصله إليها أو يوصله إليها عاجلا لا آجلا ، أو يوصله إليها ناقصة لا كاملة )) 42

والطعن في هذا التشريع واتهامه بالقصور من أي وجه كان يعني أنه لابد للناس من تشريع بديل يكون أحدث وأكمل وأوعى بحاجات البشر ، وهذا منتقى عقلا ونصا . قال تعالى ( اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينا ) (سورة المائدة 3) ثم إن في ختم الرسالات بالإسلام لطيفة تتألق لمتأملها، وهي أن نصوص هذه الشريعة ستظل محفوظة لا تطالها يد التحريف ولا يتطرق إليها التغيير إلى يوم الدين مما يؤكد استمراريته وصلاحها لكل زمان ومكان . واختتام التشريع السماوي برسالة الإسلام يقتضي أنها الشريعة الأفضل والمنهاج الإلهي الأصلح لكل البشرية ، لذا تعهد الله بحفظها من التزييف والتبديل فقال تعالى (( إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون )) (سورة الحجر 9) ثم إن الشريعة الاسلامية صالحة لمواكبة التطور الانساني بما احتوت عليه من نصوص

تشريعية تتسم بالمرونة ، فالقرآن ( حَمَال أقوال) 43 ونصوصه مرنة مفتوحة تقبل التأويل ، وأغلبها ظني الدلالة يحتمل معاني متنوعة ، وقد احتوت هذه النصوص كل العلوم، فلم يبق شيء في الكون إلا تطرق إليه القرآن تصريحاً أو تلميحاً ( ما فرطنا في الكتاب من شيء ) (سورة الانعام 38) ولذلك فإن الثروة التشريعية المتنوعة التي تمخضت عنها المدارس الفقهية وجاءت من اجتهادات الفقهاء بما فيها من آراء متفقة و مختلفة تدل في حقيقتها على حيوية النصوص ومرونتها ، وهذه الثروة الفقهية الهائلة التي نالت بها نصوص الشريعة تبرهن على سعة أفق الإسلام وشموله ومرونته في التفاعل مع تغيرات الحياة وتقلبات العصور وما يستجد من أفضية ونوازل .

ومما يؤكد صلاحية الشريعة الاسلامية لكل زمان ومكان احتوائها على الجانب التشريعي المتمثل في الأحكام الفقهية عامة، وفقه المعاملات والحدود خاصة. وهذه الأحكام الفقهية هي من أهم جوانب الشريعة وركيزة من ركائز ديمومتها ؛ لأن الفقه (( هو الضمان لبقاء الفكر الاسلامي خالصاً ومعبّراً عن عواطف المجتمع المسلم وأفكاره ونزعاته التلقائية وردود فعله إزاء الأحداث الخارجية )) 44 لذا فإن أعداء الإسلام يركزون في دراساتهم وأبحاثهم الاستشراقية المغرضة ومحاولاتهم العدوانية على قانون المعاملات وأحكام الحدود والأسرة (( لأنه المادة الوحيدة التي تربط مسلمي العصر بأفكار المسلمين المتسلسلة من عهد النبوة إلى اليوم ، ولأنها المجموعة التي تؤثر دراستها والعمل بها وتطبيقها على أفكار الناس وسلوكهم ، وعلى طريقة نظرهم للمستقبل )) 45 فيحاولون إلغائه أو الحد منه وحصره في أضيق نطاق، واستبداله بقوانين وضعية تزول بزوال السلطة المشرعة لها ، مما يسهم في تفكيك المجتمعات الاسلامية ، ويساعد في القضاء عليها .

---

43 - قائل هذه العبارة الإمام علي بن أبي طالب لما بعث ابن عباس لمجادلة الخوارج فأوصاه أن يحاجهم بالسنة ما أمكنه ذلك،؛ لأن ألفاظه تحتل التأويل. . ينظر من ملفات الذاكرة الثقافية، مواقف، محمد الجابري،

دار النشر المغربية، ط1، 2004م، ص 86

44- دفاع عن الشريعة، ص 173

45 - نفسه ، ص 96

ثم إن ما تدعو إليه النصوص التشريعية من الوسطية والاعتدال هو من كبرى  
مميزات الشريعة التي تؤيد استمرارها وصلوحيتها برغم تقلب العصور ، إذ إنها تساير  
أوضاع الفطرة الانسانية بما أقرته من تشريعات هي وسط بين التقريط والإفراط؛  
تشبع حاجات الفرد وعواطفه وميوله بدقة وتوازن من خلال التمتع بالطيبات المباحة  
في الكون ، والاحجام عن الانهماك في اللذات المحرمة التي تؤدي إلى الاضطراب  
والقلق في الدنيا وسوء المصير في الآخرة ، فقد أباحت التشريعات الاسلامية الزينة  
والتمتع بالطيبات من الرزق ، وأمرت بالزواج ، ورغبت فيه ، ونهت عن الزنا  
والفواحش وأكل الحرام وكل ما هو خبيث في حاله أو نوعه ( يا بني آدم خذوا زينتك  
عند كل مسجد واكلوا واشربوا و لا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين\_ قل من حرم زينة  
الله التي أخرج لعباده قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك  
نفصل الآيات لقوم يعلمون\_ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها و طن و الإثم  
و البغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا و أن تقولوا على الله ما لا  
تعلمون ) (سورة الأعراف31-33) كما نادت الشريعة الاسلامية بوجوب العمل وفق  
الجد والبطالة بحجة التعبد ؛ لأن الدنيا جسر للآخرة وعون عليها ( وابتغ فيما أتاك الله  
الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن ما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في  
الأرض إن الله لا يحب المفسدين )(سورة القصص77) فتعمير الأرض في الدنيا  
وصنع التقدم وبناء الحضارات الإنسانية من مقاصد الخلق عامة مثل العمل للآخرة  
و الإستعداد لها ، و التوفيق بين هاذين المقصدين من سمات و أصول الشريعة  
الاسلامية خلافا للتشريعات الأخرى ، مما جعل هذه الشريعة أكثر انتشاراً  
ومواءمة للحياة البشرية إلى أبد الدهر .

ثم إن الشريعة صالحة بفتحها باب الاجتهاد لإيجاد الحلول والفتاوى العصرية وما  
تتطلبه مستجدات الحياة مما يسمى بفقهاء النوازل ؛ فالتشريع الاسلامي يتناول قضايا  
التشريع الكلية ويدع الجزئيات لاجتهاد العلماء الذين يُصدرون الأحكام وفق  
مقتضيات المصلحة ، ومن خلال هذه المرونة اكتسب التشريع ميزة مسايرة الاحداث  
ومواءمة ظروف الزمان والمكان دون المساس بأصول القواعد العامة ، فالتشريعات و

الأحكام كانت تنزل على مدى ثلاث وعشرين سنة . زمن الرسالة . وفق متطلبات الإصلاح؛ فتتزل الآية أو الآيات إجابة عن سؤال أو إصلاحا لحال أو علاجاً لقضية تطرأ . وبوفاة النبي ﷺ وانقطاع الوحي صار الناس محتاجين للحكم الشرعي المستتب بالاجتهاد والتأمل وإعمال العقل وفق الأدلة الشرعية إلى جانب الأحكام التشريعية التي أقرتها نصوص الوحي صراحة ، للبحث في القضايا المستجدة التي لم تعاصر الوحي ، ولم ترد فيها نصوص ، ولذلك فإن اهتمام الإسلام بالعقل باعتباره وسيلة المعرفة والطريق المؤدي إلى الحقيقة ، وجعله مصدراً رئيساً من مصادر التشريع يلي الإجماع دليل على حيوية هذا الدين وصلاحه لمسايرة تطورات العصور بإيجاد الحلول للنوازل من خلال الاجتهاد والتجديد والتفاعل مع مقتضيات الحياة لرعاية مصالح الخلق وفق نطاق العقل الذي يعتمد اعتماداً تاماً على إدراك مقاصد الشريعة وغاياتها السامية ، ولذلك فإن الاجتهاد بنوعيه الفردي الذي يأتي من طريق المتميزين من علماء الشريعة ورجال الإصلاح الديني وما يصدر عنه من ترجيحات واقتراحات ، والجماعي المتمثل في مجامع الفقه ودور التشريع والإفتاء الجماعي ، وما يصدر عنه من تشريعات تبنى على التشاور والتداول والمناقشة والترجيح هو خير دليل على صلوحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان<sup>46</sup> ؛ لأن إفساح المجال أمام المجتهدين من العلماء يكسب الشريعة خاصية الديمومة والاستمرار، ويضفي عليها طابع الصلاح لمتطلبات التغيير في الأحكام ؛ لأن الأحكام تتغير بتغير الأزمنة ، والشريعة قد بنيت على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد .

ومما يؤيد صلاح الشريعة للبقاء والاستمرار سماحة الدعوة وما تحويه من أسس تنظيم التعامل مع غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ، إذ إنها التشريع الوحيد الذي يمكن تطبيقه في مجتمع تتعدد فيه الملل والثقافات ، بما تكفله نصوصها من حريات فكرية ودينية تضمن التمتع بحقوق المواطنة والتعاون بين جميع المواطنين في المجتمع الواحد على اختلاف مللهم وانتماءاتهم العقديّة. قال تعالى : ( إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ) ( سورة النساء 85 ) وقال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله

46 - ينظر قضايا الفكر والفقه المعاصر، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط 2006 ف ، ص 536

شهداء بالقسط ولا يجرمنك شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ) (سورة المائدة8) وقال ρ : (( ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة ))<sup>47</sup> فهذا التأصيل لمبدأ العدالة في الحكم والمساواة بين الناس كافة؛ المسلمين وغيرهم من أبناء المجتمع يحقق التآلف والتآزر الفكري والاجتماعي بينهم ، ويسهم في بناء الرقي الحضاري في ذلك المجتمع من خلال التسامح الديني وما تقوم عليه الشريعة من أسس العدل والمساواة بين الناس ، وما تدعو إليه من الاحترام المتبادل بين بني البشر .

ومن ميزات الشريعة التي ضمنت لها البقاء والصالح كونها اعتمدت المبادئ العامة التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بفلسفة التشريع ، ولها خاصية المرونة ، فهي تعكس سعة آفاق الشريعة وأهليتها لتقديم الحلول الناجحة لمستجدات الأحداث ومسايرة ركب الحياة ، كمبدأ جلب النفع ودفع الضرر المستمد من قوله ρ (( لا ضرر و لا ضرار ))<sup>48</sup>

وهذا المبدأ له تطبيقات واسعة في ميدان الفقه، وهو من مقاصد الشريعة وغاياتها العظمى ؛ لأنه يعكس مظاهر الشفقة والرحمة التي اشتملت عليها تشريعات الإسلام وأحكامه مما يجعل هذا الدين صالحا لكل الناس ، وفي كل زمن ، وكذلك اشتمال الشريعة على يسر الأحكام وخفة التكاليف واعتماد مبدأ التيسير ورفع الحرج (( يبين بوضوح مقدار الفرق بين الشريعة الإسلامية وبين غيرها من الشرائع التي كانت تقوم على تعنت المحاكمين وغلطستهم ))<sup>49</sup> وأخذ الناس باللين، والرفق بهم في الأحكام يؤدي بهم إلى الإنسجام مع الشريعة والاطمئنان إليها ، لذا فإن تشريعات الإسلام جاءت لرفع الحرج عن الناس ، وتكليفهم بما يطيقون ( و ما جعل عليكم في الدين من حرج ) (سورة الحج78) ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ) (سورة البقرة 185) فالمكلف مطالب بما في وسعه من

---

47 - أخرجه أبو داود، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، 3 / 170، حديث رقم 3052

48 - أخرجه الحاكم في المستدرک ، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990، ف، 2 / 66، حديث رقم 2345

49 - دفاع عن الشريعة، ص 110

العمال دون غيرها مما هو خارج عن حدود الطاقة والإمكان، وما لا يتمشى مع غرائز البشر وطباعهم .

وخلاصة القول فإن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ؛ لأنها متكاملة في ذاتها ثرية بتشريعاتها وأحكامها التعبدية والتعاملية التي تعد أساسا لكل النظم والتشريعات السائدة الآن على وجه الأرض، وهذه الشريعة تمتلك مقومات الصلاح لكل عصر وفي كل مصر ؛ لشمولية نصوصها واعتمادها الكليات العامة والمبادئ التشريعية المنظمة لشؤون الحياة في إطار محكم يعجز البشر عن محاكاته بالقوانين الوضعية مهما بلغ من تطور وحضارة ومدنية ، وستظل هذه الشريعة باقية بحفظ الله لها تتحدى البشر على أن يأتوا بنص يحاكي نصوصها أو يقاربها في وجوه إعجازها المعتمدة .

**الشورى وعالمية الدين**

إن مفهوم الشورى يحتاج إلى وقفات معمّقة ونظرات فاحصة تجمع بين استحضار التأصيل الشرعي لها والتنزيل المعاصر على حال المجتمعات البشرية وواقعها المعيش، كما إن الوظائف النهضوية الإصلاحية الناجمة عن التطبيق العملي الصحيح لهذا المبدأ الديني تستدعي ضرورة الدفاع عنه وتصحيح المفاهيم المتعلقة به من الناحية العلمية والنظرية.

فالشورى في منظور الشرع هي أول سنة اجتماعية سنّها الله لخلقه ليقتدوا بها ويهتدوا بهداها. فقد ساق القرآن محاورات ومشاورات بمستويات متعددة، ولأصناف متنوعة من الخلق لتكون منهجاً تسير عليه الخليقة ويقتدي به أولو النهى من الناس. ففي قوله تعالى ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) (البقرة : 30) تتطوي هذه المحاورة على نوع من المشاورة في بدء الخليقة وآلية الاستخلاف في الأرض وإعمارها، وهو موضوع حيوي ومهم؛ لتكون هذه المشورة هدياً يلزم بني آدم منذ الخلق الأول، فاستئناف النص القرآني بـ " قالوا " يفيد أن توجيه خطاب الله تعالى إلى الملائكة كان على سبيل الإعلام لهم والتذكير بحكمته في تدبير الأمور، فكان ردّهم على ذلك وفق حدود تفكير المخلوق وإمكاناته الفكرية القاصرة أمام تدبير الخالق. إذ إن إنباء الله للملائكة بجعل البشر خليفة في الأرض يستلزم إظهار كيفية تلقيهم لذلك النبأ. وأن صورة القول إشارة إلى أسلوب المقابلة على صورة المشاورة مع أنه تعالى لا مشير له لتعليم الخلق . وعلى هذا ينبغي فهمنا للنص في أن القصد من استفهام الملائكة ليس اعتراضاً على الجعل، وإنما هو استفسار عن حكمة الله في هذا الجعل، إذ إن التعجب الناشئ عن خفاء السبب يتولد منه الاستفسار، فقول الله هذا موجّه إلى الملائكة (( ليسن الاستشارة في الأمور ))<sup>(2)</sup>

ومن ثم يمكن القول إن الشورى جزء لا يتجزأ من كيان الشريعة يؤدي تطبيقها في أجواء علمية صحيحة إلى السيادة المطلقة لعامة الناس، وهو ما يدعو إليه القرآن . دستور الأمة . في مواطن متعددة منه.

ففي سورة الصافات مثلاً نجد آيات التنزيل تجسّد مبدأ الشورى في مسألة محسومة معزومة جاء أمر الله فيها لإبراهيم ٥ بذبح ولده ولفظة كبده بأسلوب جليّ مباشر لا يحتمل التأويل أو التأرجح بين التنفيذ والترك، ثم ساق القرآن مشاورة هذا النبي لابنه ( فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ) ( الصافات 102 ) بالتأمل في الآيات يتضح أن الأمر بالذبح على سبيل الحتم والإلزام، ولا مجال للمحاورة والاختيار فيه، ومع ذلك يقول إبراهيم ٥ لولده ( فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ) ليدل على أن الشورى مسنونة حتى في القضايا المحسومة والمعروفة، لما ينطوي عليه ذلك من المقاصد والفوائد كالحث على التآسي والتأدب؛ فإن إبراهيم ٥ حمله حسن أدبه وغزارة علمه وتواضعه على مشورة إسماعيل في هذه الرؤيا برغم أنها وحي من الله لازم التنفيذ، وبرغم صغر سن الابن وتوقع جزعه ورفضه.

كما أن المتأمل في هذا الآيات لا يعدم الوقوف على لطيفة من لطائف القرآن وأسراره، وهي أن من يعتاد المشورة فيما هو واضح وجلي لا يمكن أن يتكبحها فيما هو غامض وخفي، فكون الشورى محمودة ومفيدة في قضايا قطعية ومحسومة إنما هو إيذان بمدى ضرورتها ولزومها وأولويتها فيما تتعدد فيه الوجوه والإشكالات وتتضارب فيه الأنظار والاحتمالات.

ومن ثم كانت مشاورة فرعون لقومه في شأن موسى مركوزة في أساسها على سياسة عقلية ترمي إلى تحمّل القوم مسؤولية العقاب الإلهي إذا ثبت صدق موسى، فبرغم ادعاء فرعون الإلهوية وتعاليه على الخلق فإنه لم يجد بداً من استشارة القوم والبحث عما في بواطن عقولهم من الرأي تجاه ما نزل بهم من أمر موسى ودعوته إلى الدين الجديد ( قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ \_ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ \_ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ \_ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ) ( الشعراء 34 - 37 ) قال ابن عجيبة: قال فرعونُ ، لَمَّا رَأَى مَا بِهِتَهُ وَحَيَّرَهُ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ ، وَهُمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِ : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ؛ فَاتَّقَ فِي فَنِّ السِّحْرِ . ثُمَّ أَعَدَّى قَوْمَهُ عَلَى مُوسَى بِقَوْلِهِ : يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ بِمَا صَنَعَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ؛ تُشِيرُونَ فِي أَمْرِهِ ؛ مِنْ حَبْسٍ أَوْ قَتْلِ وَهُوَ مِنَ الْمُؤَامَرَةِ ، أَيْ

: المشاورة ، أو : ماذا تأمرون به ، من الأمر ، لما بهره سلطان المعجزة وحيره ،  
حط نفسه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده - في زعمه -  
والامتثال لأمرهم ، وجعل نفسه مأمورة ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم ، بعد ما  
كان مستقلاً في الرأي والتدبير ((50

وتأتي مشورة بلقيس برغم ثقتها بالقوة العسكرية لمملكتها من باب المشورة  
السياسية التي تمثل وجهاً من وجوه الديمقراطية غير المكتملة - الزائفة - في عصر  
تسوده السياسات الدكتاتورية ويغلب فيه طابع الاستبداد بالرأي على التشاور والتداول  
المشترك بين بني المجتمع الواحد. إذ تنبئ الآيات القرآنية بأن مملكة بلقيس كانت  
على قدر عظيم من الاستعداد العسكري والتكتيك الحربي، والعتاد البشري والمادي،  
وبرغم ذلك تنتهج الملكة منهج الشورى والتداول في الأمر، حين وصول رسالة  
سليمان ، يحملها الهدد ليدعوهم إلى عبادة الله ( قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي  
مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ \_ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ  
فَإَنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ \_ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً  
وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ \_ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ) ( النمل 32  
- 35 ) فإشهاد قومها ومشاركة مستشاريها في اتخاذ القرار حيال هذا الأمر الطارئ  
يعبر في غير خفاء على أن الشورى منهج للخلاص من الأزمات وطريق للوصول  
للرأي الأمثل؛ ومن ثم أرادت بلقيس إشراك ذوي النهى من قومها في اتخاذ القرار  
المناسب، فقالت تطلب مشورتهم (( ياأيها الملا أفتوني في أمرى { أي أجيبيوني في  
أمرى الذي حزنني وذكرْتُ لكم خلاصته ، وعبرتُ عن الجواب بالفتوى التي هي  
الجواب في الحوادث المشكلة غالباً تهويلاً للأمر ورفعاً لمحلهم بالإشعار بأنهم  
قادرون على حل المشكلات الملمّة . وقولها { مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا { أي من الأمور  
المتعلقة بالملك { حتى تَشْهَدُونِ { أي إلا بمحضركم وبموجب آرائكم استعطافاً لهم  
واستمالةً لقلوبهم لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير ((51

50- البحر المديد، أحمد بن محمد بن عجيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ف، 5 / 247

51 - إرشاد العقل السليم ، أبو السعود ، 5 / 185

وبالانتقال إلى سورة الأحزاب نلمس مظهراً آخر من مظاهر الشورى . الشورى في نطاق الأسرة . لتكون هدياً يسلكه المسلمون، ومنهجاً تُربى عليه الأسر وتتشرب به نفوس أفرادها، فقد استشار النبي ﷺ نساءه وخيهرن في أمر أخبر به القرآن ( يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَعَلَيْنَّ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا # وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ) (4) وبدأ بعائشة فقال لها (( فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك ... )) وفي رواية أخرى (( أحب أن لا تعجلي حتى تستشيرى أبويك فقالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة )) (5)

إن أمر الله لرسوله ﷺ بالمشاورة في هذه الآية يفهم منه الوجوب؛ لدلالة فعل الأمر " قل " على ذلك، وحتى لو سلمنا أنه يدل على الندب . كما في بعض الآراء . لكان في حق غير النبي ﷺ على الوجوب، ولو كان في حقه على الوجوب \_ وهو الصحيح \_ لكان في حق غيره أوكد وجوباً. ومن ثم كان كثير من العلماء يرى أن الشورى من عزائم الأحكام ولا يكتفي بوجوبها، ومن ثم قالوا بمخالفة كل من يدعو إلى ترك التشاور لما في ذلك من تعريض مصالح المسلمين للخطر والفوات (6) .

والشورى إذا لزم في القضايا الخاصة للفرد مع نفسه أو مع زوجه، أو أبنائه، فلا شك أن ضرورتها وأولويتها في الشؤون العامة والقضايا الكبرى هي من باب أولى. فالشورى من المبادئ الدينية التي تتأكد فرضيتها؛ لاقتها بجملة من الصفات التي تُعد من مقدمات الدين وأركانه، فقد قال تعالى في سورة الشورى ( فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ # وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ # وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ # وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ) (7) وهذا يعني أنها واحدة من هذه المقدمات وهي فرض كغيرها، فضلاً عن أنها تمثل طريق الانعتاق والخلاص من قيود الدكتاتورية والاستبداد بالرأي. وتعمل على توظيف الأفكار الحسنة والآراء الراجحة في كل ما هو صالح ومفيد.

إن الشورى تعني امتلاك الناس لأمرهم، كل أمرهم، وهو ما يفهم من عموم اللفظ في الآية الكريمة ( وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ) فالشورى تلتقي مع الحرية في رفع القيود عن البشر وتحريرهم من الاستغلال الفكري والاجتماعي والسياسي والاقتصادي بحيث يمارس الفرد حريته وفقاً للأطر والقواعد التي تحكم كافة العلاقات الإنسانية . ثم إن السعادة لا تتحقق إلا بالحرية ، والحرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتحقيق الحاجة التي لا تتم بدورها إلا إذا كان الإنسان ممتلكاً لإرادته متخيراً لأمره يدير شؤون حياته وفق ما يراه الأمثل والأنسب لحاله، ويقرر ما يراه صواباً، وهذا لا يأتي إلا من طريق الشورى التي تعمل على تمحيص الآراء وغربلتها بمنظور علمي وفهم واعٍ لأحداث الحياة .

إن المتأمل في قوله تعالى { وشاورهم في الأمر }<sup>(8)</sup> يلحظ دون عناء أن كل ما هو مشترك بين الناس من الأمور إنما هو محل للتشاور وإبداء الرأي، ولا يحق لأحد مهما كانت هيئته الانفراد به والاستبداد بالتصرف فيه. فأساس الوجوب في الآية هو الاشتراك في الحقوق والواجبات والمصلحة والمصير . ومن ثم كانت الشورى أمراً قطعياً وقضية حتمية مصيرية تشمل جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لعامة الناس والمجتمعات وفي جميع الشؤون والقضايا. هذا هو الأصل في الشورى، وهذا هو مقتضى عمومها، إذ المتشاورون إنما ينظرون في الخيارات الممكنة والاحتمالات المتعددة التي قد تعترى تطبيقها ملابسات وإشكالات تحتاج إلى نظر وتفكير وموازنة وحسن تدبير بغية تمييز الراجح من المرجوح والوقوف على الأفضل والأنسب للكيان الاجتماعي وبما يسهم في نهوض الأمة ورفقيها.

ومن ثم يمكن القول إن كل ما يتطرق إليه الاحتمال والاستشكال وكل ما يثير عادة الخلاف، ويدخله الاجتهاد البشري وما هو مشترك بين الناس من الأمور المتعلقة بالحقوق والمصالح هو مجال للشورى، وجوباً أو ندباً بحسب أهمية تلك الأمور وحجم انعكاساتها على حياة الأمم والمجتمعات .

على أنه ينبغي التنويه هنا إلى أنه لا بد من تفعيل الشورى من خلال التثقيف العام وغرس مثل هذه المبادئ والقيم في نفوس العامة حتى تؤدي ثمارها على الوجه المراد.

ويمكن أن نعد من الشورى الهادفة تشاور أصحاب الكهف الذين ساق القرآن الكريم قصتهم تسلية لنبيه وتذكيراً ( قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۚ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ) ( سورة الكهف، الآيتان 19 ، 20 ) فقد تشاوروا لما استيقضوا من نومهم فقال أحدهم كم لبثتم ؟متسائلًا عن الزمن الذي قضوه نائمين (( لِمَا رَأَى مِنْ مَخَالَفَةِ حَالِهِمْ ، لِمَا هُوَ الْمَعْتَادُ فِي الْجُمْلَةِ ، {قالوا} أي : بعضهم : "لبثنا يوماً أو بعض يوم " قيل إنما قالوا ذلك لأنهم دخلوا الكهف غُدوة ، وكان انتباههم آخر النهار ، فقالوا : لبثنا يوماً ، فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعدُ قالوا أو بعض يوم ، وكان ذلك إخبارًا عن ظنِّ غالب ، فلم يُعْزَوْا إِلَى الْكُذْبِ.)) ثم قال بعضهم (( رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ أَي : أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها الله - سبحانه - ، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من حسن الأدب ، فابعثوا أحداكم بورقكم هذه إلى المدينة ، أعرضوا عن البحث عن المدة ، وأقبلوا على ما يهم في الوقت ))52

ولا شك أن المستقرئ لآيات القرآن يلحظ دون عناء نوعي الشورى المخلقة وغير المخلقة فيمكن أن نلاحظ أن الشورى غير المخلقة لا تأتي إلا بالخراب والدمار ولا تجر إلا الويلات سواء أكانت على المستوي الفردي أم الجماعي ، ولعل في تشاور أبناء يعقوب إخوة يوسف ما يؤكد هذا المعنى ( إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ # اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ # قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ) ( يوسف : الآيات 8 - 10 )

إن الشورى التي نادى بها الإسلام، وأمر بانتهاجها هي تلك التي تتم في أجواء من الحرية المطلقة حرية الضمير الواعي المنقشف والمحصن ضد الدسائس والمؤامرات. وحرية التفكير بعيداً عن الخوف والرهبة ودون أي أصار وأغلال. وحرية التعبير بحيث تتمخض هذه الإرادة عن كل ما هو صواب ومفيد، فتصبح الشورى نصيحة تبذل لعامة المسلمين، ويتاح للناس أن يعبروا تعبيراً حراً عما في عقولهم في جو من الديمقراطية الحقيقية التي تعكس السيادة المطلقة للمتساويين.

إن تطبيق نظام الشورى من أوفق وأصوب أبواب السياسة الشرعية الرشيدة التي دعا إليها القرآن الكريم - شريعة المجتمع الإسلامي - بل هي من أوفق السياسات التي جرت وتجري على ساحة الحياة؛ لأن السياسة الرشيدة هي ما كان الناس معها أقرب إلي الصلاح وأبعد من الفساد، لاسيما إن أتت من طريق الدين، وكانت مبنية على الحرية الفكرية من خلال الممارسة الشورية عملاً بمبدأ الاستشارات الموسعة لعموم طبقات المجتمع وبمجموع أفراده .

إن المستقرى لتاريخ الدولة الإسلامية إذا تجاوز عصر التأسيس يعدم أن يجد مؤسسة شورى قارة يقرها النظام السياسي الحاكم ويرسي دعائمها مثلما أقر بعض المؤسسات الإدارية كالقضاء والمظالم والحسبة والأوقاف وغيرها . ومن ثم لا يخفى على ذي لب ما نجم عن تعطيل الشورى من أضرار ومفاسد على الصعيد السياسي والاجتماعي لدولة الإسلام؛ لأن الصلاح والفساد دائرين مع سنة الشورى أو الاستقلال في الرأي. فالشورى من أعظم حقوق الناس ومصدر هداية وإصلاح لكل الجوانب الحياتية، وتوجيهها نحو الخير، وتعطيل هذا المبدأ تحت أي ظرف من الظروف هو ظلم صارخ وتعدّي فاضح على أكبر الحقوق التي تقوم عليها أسس الإصلاح النهضوي للبشرية. إذ إن إشراك الناس في تدبير أمورهم العامة ومصالحهم المشتركة هو من أؤكد الحقوق التي دعا إليها القرآن، فالشورى ليست إلا تفعيل حقيقي وتطبيق عملي لقوله تعالى ( الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ) (الزمر ، الآية 18 ) ولذا كان الاستبداد بالرأي من أكبر أنواع الظلم والاعتداء على أعز ممتلكات الناس. وتعطيل الشورى يؤذن بالخراب والفساد، وله آثاره السيئة على المستوى الفردي والجماعي؛ لأن (( من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله، أو طالبه

بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه. ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران ))53

إن الشورى عادة ما تكون في أمور تتوارد عليها الاحتمالات والإشكالات ، وتتعدد فيها المسالك والخيارات . فيحتاج المستشار أو المتشاورون ، إلى معرفة وجه الحق والصواب ومسلك الرشد والسداد ، في المسألة .

وتأتي الشورى من أجل الموازنة والمفاضلة بين صواب وأصوب ، وحسن وأحسن ، أي أن المشاورة تقضي إلى تمييز الأصوب من أجل إتباعه والأخذ به إن كان ممكناً .

وإذا كانت الشورى غالباً ما تقضي إلى تجنب الخطأ والتمسك بالصواب ، أو إلى الارتقاء من صواب إلى أصوب ، وإذا كانت الشورى - كما تقدم - تدخل في جميع المجالات ، الدينية والدنيوية ، الفردية والأسرية والجماعية ، بجميع مستوياتها... فلنا أن نتصور كم تريح الأمم والشعوب ونكسب حين تعم الشورى حياتها ، وتسدد قراراتها واجتهاداتها وتدابيرها وتصرفاتها .

فإذا نظر في المسألة وناقشها عدد من الناس ، تختلف عقولهم ونفوسهم وميولهم ، مع مالهم من علم وخبرة بالمسألة المعروضة ، ومع ما يفترض فيهم من نصح وإخلاص ، فإن نتيجة التشاور والتداول ، والتقدير والترجيح ، تكون - بدون شك - أبعد عن المؤثرات الذاتية والمشوشات النفسية ، وتكون أقرب إلى الحق والعدل والصواب .

والشورى كما تحمي الشعوب من استبداد حكامها ، فإنها تحمي الحكام أنفسهم من نزعة الاستبداد والقبالية له الكامنة في نفوسهم، فحين نقرأ قوله تعالى ﴿ فَاسْتَخَفْ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ (سورة الزخرف ، 56) يجب أن نتساءل : لو أن فرعون حين استخف قومه لم يطيعوه ، هل كان سيتمادى في فرعونيته وتجبره؟.

على أن الاستبداد ليس خاصاً بالحكام والأمراء والزعماء ، فهناك الزوج المستبد ، والأب المستبد ، والمفتي المستبد ... وكل صاحب سلطة ، سياسية ، أو إدارية ،

53 - مقدمة ابن خلدون، ص ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1967م، 510

أو علمية، أو اجتماعية ، يمكن أن يصبح مستبداً . وأن كلا يستبد حسب سلطته وطاقته بعيدا عن الشورى التي تعني حرية في التفكير وحرية التعبير الصادق الأمين .

وكلما تكررت الشورى وتراكمت فوائدها المعرفية والفكرية والعلمية لدى الأفراد ، وكلما اتسعت وشاعت في صفوف المجتمع ومجالات الحياة ، فإنها تعطي في النهاية قدرا واسعاً من الاهتمام والفهم للأمور ، والإفادة من ذوي الخبرة والمهارة في المعالجة والتدبير للمشاكل والتحديات وسائر متطلبات الحياة .

إن من تكريم الله للإنسان أن ترك له مجالات واسعة في دينه، ومجالات أوسع في دنياه ، يمكن تدبير شؤونها وحل إشكالاتها ، من خلال الجهد والاجتهاد البشري، ولا شك أن أرقى صور الاجتهاد البشري ، وأرشدها وأهداها سبيلا ، هو الاجتهاد الشوري بل إن الاجتهاد الشوري العملي هو أفضل طريق لتأهيل العقل البشري وترقيته في مراتب الاجتهاد والتفكير السديد .

ثم إن القرارات والتكاليف والتدابير التي تنبثق عن تشاور وتراض وتكون على قدر كبير من التوازن والموضوعية ، يتلقاها الناس عادة بالحماس والرغبة في تنفيذها وإنجاحها وتحمل متطلباتها ، لأنها تتمتع بالمشروعية والمصادقية ، ولأن الناس يحسون أنها منهم وإليهم ، لأنها صدرت عن مشورتهم .

مما سبق يمكن القول: إن الشورى في مفهومها الحقيقي امتثال لشرع الله وتطبيق لدستور السماء في الأرض؛ لأجل تحقيق السيادة والحرية التي هي شرط في إظهار الحق والتمتع به، ومن ثم فهي ليست شعاراً يطرح في أطر دستورية مبرمجة لاستغلال الشعوب وسلب إرادتها، وإنما هي من المبادئ التي تؤكد عالمية الدين واتساعه وشموله لكل مقومات الحياة السياسية والاجتماعية .

## حوار الإسلام من أسس عالميته

إن الحوار قضية تفرضها طبيعة الإنسان الاجتماعية وأسلوب عيشه القائم على المشاركة والانفتاح على الآخر، والتعاون معه لتلبية حاجاته العلمية والنظرية، وتحقيق الإشباع المادي والمعنوي وفق ما سنّه الله من الاختلاف والتدافع في الحياة. إذ إن الاختلاف آية من آيات عظمة الله، ومظهر من مظاهر روعة إبداعه في الخلق. يقول تعالى في كتابه العزيز ( وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ الْمُسْتَنْتَكُمُ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ) ( سورة الروم، الآية 22) فوحدة

الجنس أو اللون أو اللغة ليست من الضرورات التي لا يمكن تحقق التفاهم من دونها. لذلك لا بد من أجل إقامة علاقات مبنية على المحبة والاحترام من الحوار وفق قاعدة هذه الاختلافات التي خلقها الله وأرادها أن تكون، والتي يتكشف للعلم أنها موجودة حتى في الجينات الوراثية التي تشكل بعناصرها شخصية كل منا وتمايزاتها. ومع هذه الاختلافات الفطرية كان من طبيعة رحمة الله اختلاف الشرائع والمناهج، وهو ما أكدته القرآن الكريم بقوله (كُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) (سورة المائدة ، الآية 128)

والم تأمل في معاجم اللغة بحثاً عن مفهوم الحوار يلحظ أن هذا المصطلح يأتي وفق حقول دلالية متعددة؛ فهو يعني السؤال والاستنتاج ويعني الرد والجواب، ومراجعة النطق، وتبادل الكلام كما صرح بذلك أصحاب المعاجم اللغوية المختلفة والتي تحصر المضامين المعرفية لمفهوم الحوار في الإقرار التام بحق الآخر في عرض قضايا وطرح مقولاته من غير قهر ولا جبر، مع الإصغاء إليه وتفهم ما يذهب إليه من الآراء، ومنحه الحق في الدفاع عما هو مقتنع به. فهدف الحوار هو شرح وجهة النظر وتبيان المعطيات التي تقوم عليها، وفي الوقت نفسه الانفتاح على الآخر لفهم وجهة نظره والتفاهم معه. ذلك بأن التفاهم لا يكون من دون فهم متبادل. والحوار هو الطريق إلى استيعاب المعطيات والوقائع المكونة لمواقف الطرفين المتحاورين، ثم إلى تفاهمهما.

لا شك أن الحوار مع الآخر يعدّ اكتشافاً للأننا، وعن طريقه يتم اكتشاف النواقص التي لا تخلو منها شخصية إنسانية. إذ إن الآخر هو وسيط بين الإنسان ونفسه، ومفتاح لفهم ذاته والإحساس بوجوده، ومن ثم كان إقرار الله تعالى لسنة الاختلاف في الكون منهجاً يرمي إلى التعايش الطبيعي وتوجيه علاقات الناس وضمان تفاعلاتها الإيجابية بما يحقق مسؤولية الاستخلاف في الأرض، وفق علاقات تتبني على الاحترام والأمر بالمعروف لضمان التواصل الإنساني والتبادل النفعي في المعاملات الحياتية، ومن ثم ينتقل التدافع القهري المتمثل في التهاجر والصراعات إلى تدافع سلمي، وهو ما تدعو إليه تعاليم الشريعة الإسلامية التي ترى في الحوار فريضة واجبة وضرورة شرعية لتحقيق الوئام.

فالدعوة إلى الحوار والالتقاء بالآخر ومجادلته بالتّي هي أحسن دعوة قرآنية وتكليف شرعي قائم على الحكمة والموعظة الحسنة ( ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ) (سورة النحل ، الآية 125) فالإنسان وإن كان ابن بيئة محددة تفرض عليه أنماطا من السلوك والتفكير وتطبعه بعبادات وأعراف خاصة فإنه مطالب بالتفاعل مع بني البشر بالاحترام على صعيد الشعائر والمعتقدات، والاعتراف بهم والتسامح معهم بعيداً عن التعصب للجنس أو اللون أو الطبقة أو الدين، والحوار بمفهومه الإسلامي الصحيح يخرج هذا الإنسان من دائرة الانتماء المحدود الذي يضيق آفاق إنسانيته وتواصله مع الآخرين إلى دائرة أوسع هي دائرة البشرية ذات الأصل الواحد ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ) (سورة الحجرات ، الآية 13) فالحوار الإسلامي فضلاً عن أنه سبيل إلى تفاهم المختلفين يرمي إلى تأكيد حقوق الإنسان في حين لا تعرف الملل والأمم الأخرى إلا حقوقها، وحوار الإسلام يهدف إلى توثيق العهود واحترامها في حين يزمن اليهود وغيرهم نقض العهود.

إن المحاولات الإصلاحية الرامية إلى خلق التعايش السلمي بين الناس تستوجب إيضاح المفاهيم المتعلقة بالحوار من الناحية النظرية والعملية. فالحوار في الإسلام مركوز في (( رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأيي غيبي خطأ يحتمل الصواب))<sup>54</sup> وليس لأحد أن يدعي الحقيقة المطلقة. وليس له أن يخطئ الآخرين لمجرد اقتناعهم برأي مخالف؛ لأن البشرية في جميع مراحلها محكومة بما يسمى " قانون الاختلاف، ثم إن الحوار في منظور الشرع هو أول سنة اجتماعية سنّها الله لخلقه ليقنّوا بها ويهتدوا بهداها، ولتبرز حقيقة التربية الإلهية. فقد ساق القرآن تحاورات متعددة، لتكون منهجاً تسير عليه الخليقة ويقنّدي به أولو النهى من الناس. ففي قوله تعالى ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) (سورة البقرة ، الآية 30) أرسى القرآن الكريم قواعد واضحة للاعتراف

54 - هذا القول منسوب للإمام الشافعي

بالآخر فحكى ما جرى من تحاور بشأن بدء الخليقة وآلية الاستخلاف في الأرض، وهو موضوع حيوي ومهم ؛ لتكون هذه المحاورة هديا يلزم بني آدم منذ الخلق الأول، فاستئناف النص القرآني بـ " قالوا " يفيد أن توجيه خطاب الله تعالى إلى الملائكة كان على سبيل التعليم والإرشاد لفهم الآخر فهماً يزيل الاستغراب ويدعو إلى الاحترام المتبادل في ظل الإيمان بقدرة الله خالق الكل. وفي ذلك يقول ابن عاشور: (( قول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس ))55

ولا شك أن هناك لكل اعتقاد أصولاً إيمانية يتجاوز بعضها النقاش العقلي إلى الإيمان بالغيب، ولكل اعتقاد تجلياته في السلوك والحياة عامة، والحوار الفعال هو الذي يستطيع التجرد لما يمكن البناء عليه من أصول إيمانية انطلاقاً نحو إدارة أفضل لحياة الناس على مختلف مشاربهم. وهنا تكمن إضافة الدين للحياة وواقع الناس، وبخاصة ما يجمعهم وينفعهم. ومن ثم كانت محاورات القرآن لأهل الكتاب تعتمد على المحاجة العقلية الرامية إلى محاولة فهم الآخر وإقناعه؛ لأجل تأصيل الوجدانية وتأكيداتها وتجديدها، فالقرآن يأخذ على اليهود نقضهم عهد الله واتخاذهم عزيز ابن الله ، ويأخذ على النصارى انحرافهم من التوحيد إلى التثليث ، ومن ثم وجه إليهم نداءه العادل ( قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ) ( سورة آل عمران ، الآية 64 ) لأجل الدفاع عن أساس دينهم وصفاته ووحدته مصدره.

إن العقيدة في الإسلام تستقر بالفكر اختياراً ولا تُلصق باللسان قهراً وإجباراً فالله تعالى يقول ( لا إكراه في الدين ) (البقرة، الآية 256 ) وقد تجلت سماحة الحوار الإسلامي في أول دستور اجتماعي خطه رسول الله ﷺ بالمدينة، إذ جاء فيه أن أهل

الكتاب ((... أمة مع المؤمنين . فليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم  
إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته ))<sup>56</sup>

ولنا في إطلالة سريعة أن نقف على قراءة وصفية لتاريخ الحوار في الإسلام؛  
منذ أن سطع نوره، حيث أدرك النبي ﷺ وأصحابه عالمية الدين وطبيعته، فقاموا  
يدعون الناس إلى هديه، فبدأ الحوار بينهم وبين المشركين، وسجل القرآن الكريم في  
العديد من آياته كثيراً من هذه الحوارات التي تضمنت الرد على المشركين بما يتمشى  
مع أدب الحوار وسماحة الدين نذكر مثلاً قوله تعالى ( قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا  
أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْصَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ  
الْعَلِيمُ ۚ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) (سورة سبأ،  
الآيات 24 - 27)

وكان من أهم المناسبات التي كان للحوار الهادف فيها دور إيجابي وفعل هجرة  
أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة، وما دار بينهم وبين النجاشي من تحاور حول معتقد  
المسلمين في المسيح U وأمه وما جاء في كتاب الله بشأنهما.

كما كانت مراسلة النبي ﷺ لملوك النصارى وزعمائهم نوعاً من الحوار الداعي  
إلى إرساء دعائم العالمية للدين الجديد، ونشره بين أمم الأرض قاطبة، فقد أرسل ﷺ  
أصحابه بكتبه إلى النجاشي وكسرى وهرقل والمقوقس .

لعل من الشواهد التي تجسد الحوار الإسلامي في طابعه الدعوي وعالميته ، ما  
رواه مسلم في صحيحه من حديث سهل بن سعدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ لَعَلِي  
بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ أَعْطَاهُ الرَّايَةَ « انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى  
الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَ اللَّهُ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا  
وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ »<sup>56</sup>

لم يغفل التاريخ الإسلامي أن يسجل الحوارات التي جرت في قصور السلاطين  
بين المسلمين وغيرهم كحوار الخليفة هارون الرشيد مع طبيبه النصراني، واستعانتة

<sup>56</sup> حياة محمد - محمد حسين هيكل ... ص 326 .

<sup>56</sup> - صحيح مسلم ، باب من فضائل علي بن أبي طالب، 16 / 22 ، المكتبة الشاملة

بعالم خراسان محمد بن عمر بن واقد . كما جمع الخليفة المأمون بين كلثوم بن عمرو العتابي وابن فروة النصراني، حيث تناظرا بين يديه في قول النصارى بالوهمية المسيح. وأسلم بعض فلاسفة النصارى الذين تهيأت لهم فرص التحوار في قصور الخلافة مع نخبة من علماء الإسلام كالجبائي والأشعري والكعبي وغيرهم<sup>57</sup>

وبعيدا عن قصور الأمراء تحاور علماء الإسلام مع غيرهم، فأسهمت الثقافة الإسلامية في التنظير لفنون الجدل واستثمار ملكة الحوار في تداول المعرفة حتى صارت مباحث المناظرة من الفنون التي تحتل موقعا متميزا ضمن العلوم فظهرت مدارس مختلفة وضعت مبادئ وقواعد في ضبط العملية الحوارية، وسنت آداباً وأصولاً تقوّم المُحاور والحوار.. فكانت المناظرات التي أبدعها المسلمون نماذج باهرة للحوار الجاد المتأدب. ولعل من أوائل ما نُقل في هذا الصدد حوار أبي حنيفة النعمان إمام مدرسة الرأي مع طائفة من الملاحدة حول سببية العالم<sup>58</sup>.

كما كتب العلماء العشرات من الكتب والردود على محاورهم، فازدهر حوار الكتب، مثل كتاب " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " لابن تيمية يردّ فيه على كتاب ورد من قبرص للأسقف بولص راهب صيدا<sup>59</sup>. كما كتب أبوليد الباجي المالكي رسالة رد فيها على رسالة وجهها راهب فرنسا إلى المقتدر أمير سرقسطة يدعوه للدخول في النصرانية. وكتب أبو عبيدة الخزرجي القرطبي كتابه الشهير " مقامع هامات الصلّبان ومراتع روضات الإيمان " ردّاً على أسئلة كان يثيرها قسيس قوطي على نفر من المسلمين بطليطة.

هكذا لم تنقطع الحوارات والكتب المتبادلة بين المسلمين وغيرهم ، وإن خفت بريقها مع تراجع الحركة العلمية عند المسلمين<sup>60</sup>.

---

57 - ينظر كتاب عيون المناظرات ص 185 وما بعدها، والحوار ثقافة ومنهجاً ص 22

58 - درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ، 3 / 127

59 - ينظر: الحوار ثقافة ومنهجاً ص 24

60 - الحوار ثقافة ومنهجاً ، ص 25

وفي القرن العشرين نشط الحوار بين الرسالات، ودعا المتحاورون إلى عدد من المؤتمرات كمؤتمر تاريخ الأديان الدولي في بروكسيل عام 1935 م، والمؤتمر العالمي للأديان المنعقد في لندن عام 1936 م، ثم في باريس عام 1937 م . ونشطت الدعوة إلى حوار الرسالات إثر انعقاد مجمع الفاتيكان الثاني 1965م والذي دعا لاستئناف الحوار مع الرسالات، وأنشأ مؤسسات خاصة بذلك داخل الفاتيكان تولت الدعوة لعدد من المؤتمرات واللقاءات بين القيادات الدينية في العالم، ثم توالى الحوارات والدعوات من مختلف المؤسسات والمنظمات والدول الإسلامية وغيرها؛ لينظر المتحاورون في الخيارات الممكنة والاحتمالات المتعددة التي قد تعترض تطبيقها ملاسبات وإشكالات تحتاج إلى نظر وتفكير وموازنة وحسن تدبير بغية الوصول إلى المواطنة والتعايش السلمي، والوقوف على الأفضل والأنسب للكيان الاجتماعي وما يسهم في نهوض الأمم ورقبها<sup>61</sup> .

ومما يمكن أن يُعدّ من أساليب الحوار العصرية ما تحدّثه تكنولوجيا الاتصالات من ثورة هائلة في الإعلام الدولي أو عالمية الاتصال، وما عليه وسائل الاتصال في العصر الحاضر من عولمة البرامج الثقافية التي تستهدف الإنسان والتي تجاوزت حدود المحليّة لتتسم بالطابع الدولي فيما تعرضه من أنواع الثقافات التي تخاطب العقول بكافة مستوياتها وتنوع بيئاتها من خلال ما تبثه الفضائيات ومحطات التلفزيون، مما يستولي على عقول المشاهدين ويشد انتباههم ومتابعتهم، وما يمكن أن يحدثه ذلك من آثار تتصل بإدراك المشاهد واتجاهاته وقيمه، فأصبحت متابعة البرامج العالمية جزءاً من نسيج الحياة اليومية للمواطن بعد أن كان اهتمامه مركزاً في البرامج المحلية. ومن ثم يمكن القول: إن انفجار المعلومات وتغلغلها في الآفاق يضفي طابعاً دولياً على وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ويكفل تفاعلاً جاداً يسهم في تلاقح الثقافات وامتزاج الفنون والحضارات، وتلك غاية من غايات الحوار .

إن المتأمل في هذه القراءة التاريخية السريعة في تاريخ الحوار لن يعدم رؤية ما قدمه الإسلام من نماذج حوارية فريدة منذ مبعث النبي ﷺ هذه النماذج تدعو لاستئناف الحوار الحضاري وتنشيطه من جديد وأخذ زمام المبادرة إليه، استجابة

لأمر الله تعالى، وتأسيا بمنهج نبيه ﷺ بعيداً عن الانهزام والتبرير، وإيماناً بأن كل ما هو مشترك بين الناس من الأمور إنما هو محل للتداول وإبداء الرأي، وأن كل ما يتطرق إليه الاحتمال والاستشكال وكل ما يثير عادة الخلاف ويدخله الاجتهاد البشري، وما هو مشترك بين الناس من الأمور المتعلقة بالحقوق والمصالح هو مجال للتداول، وجوباً أو ندباً بحسب أهمية تلك الأمور وحجم انعكاساتها على حياة الأمم والمجتمعات.

على أنه ينبغي التنويه هنا إلى أنه لا بد من تخليق الحوار من خلال التثقيف العام وغرس القيم الانضباطية والمثل العليا في نفوس المتحاورين حتى لا يتحول هذا الحوار إلى أداة للصراع والمشاحنة والجدل العقيم لينتج الخصومات المؤدية إلى الفرقة والشتات. فالتداول سنة إلهية غايتها استمرار توازن الكون وإحداث السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، فيجب أن يُوجه التداول نحو إرساء دعائم الأمن والسلام عملاً بقوله تعالى (إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الحجرات ، الآية 9) لأن الحوار غير المخلّق لا يأتي إلا بالخراب والدمار ولا يجزّ إلا الولايات سواء أكان على المستوى الفردي أم الجماعي، ولعل في تداول أبناء يعقوب ما يؤكد هذا المعنى (إِذْ قَالُوا لْيُؤَسِّفْ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبِنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ # اقْتُلُوا يُؤَسِّفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ # قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُؤَسِّفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيبَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ) (سورة يوسف ، الآيات 8 - 10) ومن قبلهم تداول ابني آدم (إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (سورة المائدة، الآية 27) فالتداول غير المخلّق يمثل مبدأ وضعياً مفرغاً من الغايات الإنسانية ينتج الصراع الذي يحمل شحنة نفي الآخر وتجاهله، بل وقهره، والسيطرة عليه؛ سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً.

ولعل الغزو الثقافي السائد الآن وما ينجم عن عولمة الثقافة من إقصاء للآخر ودفن لثقافته وأنماط تفكيره يُعدّ نوعاً من الحوار الهادم الذي يهزّ أركان الحياة، فلا

ريب أن الثقافة ذات خصوصية وأن لكل أمة من الأمم مبادئ وقيماً ومفاهيم تمثل شخصيتها الظاهرة، وتعبّر عن نظرتها للحياة وتتمّ عن تصورهما للوجود، فتحرص على استمرارها والمحافظة على كيانهما، ووقايتها من عوارض الزمن وصراع الأفكار، وتبذل في سبيل رسوخها وثباتها كل ما تملك من نفس ونفيس وجهد جهيد، وعند استعراض الأحداث التي غيرت تاريخ العالم من حروب وحركات فكرية ونهضات علمية نجد أنها جميعاً تهدف إلى اقتلاع فكرة وإحلال أخرى مكانها؛ سواء أكانت الفكرة البديلة هي الأمثل أم الأسوأ<sup>62</sup>.

تُمثّل العولمة الثقافية إذن في الوقت الحاضر إحدى الحلقات الجديدة في هذه السلسلة الممتدة، باعتبارها أحد وجوه العولمة وأكثرها تميزاً، وأعظمها خطراً، فهي تعني صبغ ثقافات الشعوب المتراكمة والموروثة بصبغة ثقافة النظام الواحد عن طريق الوسائل الحديثة المستخدمة، ومن ثمّ إقصاء الآخر وتهميشه، بعيداً عن التناغم الفكري والتبادل الثقافي بين الأمم الذي هو في حقيقته تفعيل حقيقي وتطبيق عملي لقوله تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) (الزمر ، الآية 18) ومن ثم يمكن القول إن استلاب الحريات المادية والفكرية وإعاقة سبل التحوار يؤذن بالفساد، وتنعكس آثاره السيئة على المجتمعات.

لعل من أبرز شواهد التحوار والتفاعل غير المخلّق ما يسود الآن المجتمعات الإسلامية من تفشي تيارات الغلو والتطرف التي ظهرت بين ظهرائي المسلمين، والتي أفرزها القصور في فهم جوهر الإسلام وروحه القائم على السماحة والانفتاح والرحمة الشاملة للعالمين .. والتي اتخذت سبيل رد الفعل واستخدام القوة والعنف والتدمير وكل ما لا يتفق مع مصالح البشر ولا يخدم مركزية استخلاف الإنسان، في حين جاء الإسلام ليؤسس للعيش الكريم بين بني البشرية بين أمم الأرض وشعوبها<sup>64</sup>.

<sup>62</sup> - ينظر مقالة : دور الإعلام في نشر تيار العولمة ، للدكتور هاشم عبده هاشم ، مجلة كلية الملك خالد

العسكرية ، عدد صفر عام 1420هـ ص20

<sup>64</sup> - ينظر : الحوار ثقافة ومنهج ص 82

إن حضور البعد الإيماني وتحقق الفهم السليم لسماحة الدين هو الضمان الحقيقي لشرعية العلاقات في المجتمع الإسلامي، والذي يمكن أن يعمل على تسوية الخلافات وتقريب وجهات النظر؛ إذ إن المسلمين على قدر وافر من العلم والمعرفة، لكنهم يفتقدون الموجّه الصحيح والمؤشر الضروري الذي يمنح السلامة ويكسب الصواب لهذا العلم وتلك المعرفة، بحيث يمكن الاستفادة منها وتوظيفها فيما يعود بالنفع بعيداً عن الفرقة والشقاق.

إن من المؤسف حقاً في هذا الزمن أن المسلمين قد اكتسبوا المعرفة وافتقدوا خلقها، فابتاعوا الوسيلة بالهدف والغاية، وأنقنوا فن الاختلاف وافتقدوا آدابه والالتزام بأخلاقياته، وانتهجوا منهج الحوار غير المخلّق الذي أدى بهم إلى الخلاف حول أمورٍ ربما كانت مندوبةً أو مباحةً، فأضاعوا المفروض والواجب، وسقطوا فريسة التآكل الداخلي والتنازع الطائفي الذي أورث الأمة هذه الحياة الفاشلة وأدى إلى ذهاب الريح، معرضين بذلك عن قوله تعالى ( ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ) ( الأنفال: الآية 26 )

إن المستقرئ لتاريخ التشريع الإسلامي يلحظ عجباً ويستلهم - إن أراد - مواظ وعبراً مما كان عليه علماء الصحابة وصالحهم من أدب الحوار، وأخلاقيات الاختلاف، ويدلك على ذلك ما كانوا عليه من الاختلاف المحمود في العديد من المسائل والفروع الفقهية؛ كاختلافهم في سبي أهل الردّة. فعلى سبيل المثال كان الصديق  $\tau$  يرى سبي نساء المرتدين على عكس ما يراه عمر  $\tau$  الذي نقض في خلافته حكم أبي بكر في هذه المسألة، وردّ السبايا إلى أهاليهن حرّاء إلا من ولدت لسيدها منهن. كما اختلفا في قسمة الأراضي المفتوحة: فكان أبو بكر يرى قسمتها وكان عمر يرى وقفها ولم يقسمها. واختلفا في المفاضلة في العطاء، فكان أبو بكر يرى التسوية في الأعطيات، ويرى عمر المفاضلة وقد فاضل بين المسلمين في أعطياتهم. لكن هذا الاختلاف وما يصحبه من تحاور كان أداة للمحبة ومنهجاً للتقارب والوصال؛ حتى إن أبا بكر حين استخلف عمر قال له بعض المسلمين: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى من غلظته؟ قال: أقول: اللهم إني

استخلفت عليهم خير أهلك. وحين قيل لعمر: أنت خير من أبي بكر. أجهش بالبكاء وقال والله لليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر<sup>65</sup>.

كما أن الحوار بمفهومه الإسلامي ينكر على المجتمعات ما رُزئت به من الشّتات الناجم عن الأنانية وحب الذات، والمتمظهر في حوادث الطلاق وهجر الأبناء بيوت آبائهم، وانتشار البغض والحقد بين بني الجنس البشري، ناهيك عن الانحدار الخلقي والانخراط في الرذائل التي تعصف بالعقول، وتحول البشرية إلى ما يشبه قطعان من الماشية يسهل استغلالها والسيطرة عليها وتدميرها .

وختاماً فإننا نقول: إن الاختلاف والتنوع سنة كونية يتعيّن على البشرية قبولها والتعامل معها بعيداً عن الخلاف الذي ينتج النزاع والصراع والاقتتال والعداء. إن محاولة فهم الآخر والتناغم معه يمثل مصدر هداية وإصلاح لكل الجوانب الحياتية، وتوجيهها نحو الخير،

إن ما سيق من نماذج من الاختلاف المحمود والحوار المخلّق تجسّد خير دليل على أن الحوار سنة بشرية وسمة طبيعية تؤدي إلى فهم الآخر واستيعابه وتقبله، فإن اختلفت الآراء لم تختلف القلوب، لأن نياطها شدّت بأسباب السماء فما عاد لتراب الأرض عليها من سلطان.

إن المضمون الرئيس للحوار يكمن فيما يحدثه من أثر في المجتمعات البشرية التي كانت تعيش كلاً في تاريخيته الخاصة، وحسب تراثه الخاص ووتيرة تطوره ونموه المستقلة نسبياً، على الرغم من ارتباطها بالتاريخ العالمي، وقد أصبحت بفضل الحوار والانفتاح على الآخر تعيش في تاريخية واحدة فهي تشارك في نمط إنتاج واحد يتحقق على مستوى الكرة الأرضية وهي تتلقى التأثيرات المادية والمعنوية ذاتها سواء التي تتعلق بالثقافة أو البيئة أو بالأزمات الاقتصادية أو بالمسائل الاجتماعية . إننا نتطّلع إلى أن يعي الناس كنه الحوار ومفهومه وما يرمي إليه لاسيما أن معظم المجتمعات المعاصرة؛ عربية وغربية تتلاقح فيها الثقافات وتتنوع فيها الأديان، وقد دخل الإسلام إلى أوروبا وأمريكا مثلما تنتشر المسيحية في كثير من ديار العرب والأفارقة، وأصبح لزاماً على المسلمين والمسيحيين وغيرهم أن يألفوا العيش في

<sup>65</sup> - ينظر كتاب الأمة، أدب الاختلاف في الإسلام ، طه جابر فياض، 1/ 16

مجتمع واحد عملاً بقوله تعالى ( لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ) (سورة البقرة : الآية 256)

### من خصائص الإسلام:

إن مما يؤكد عظمة الإسلام وعالميته ما يتميز به من خصائص ومميزات لا توجد في غيره من الملل والأديان، ومن تلك الخصائص التي تثبت تميز الإسلام ومدى حاجة البشرية قاطبة إليه ما يلي:

- أنه يجمع بين العقيدة والشريعة، فهو كامل في عقيدته وشرائعه ؛ فليس ديناً فكرياً فحسب، أو خاطرة تمر بالذهن، بل هو كامل في كل شيء ، مشتمل على العقائد الصحيحة ، والمعاملات الحكيمة ، والأخلاق الجميلة ، والسلوك المنضبط .  
( أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى ) ( يونس 35 )  
- ومن الخصائص التي تتبى بعالمية الإسلام أنه دين العدل، فقد قال تعالى في كتابه العزيز ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان ) ( النحل : 90 ) قال القرطبي (( العدل هو كل مفروض، من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف ، وإعطاء الحق. والإحسان هو فعل كل مندوب إليه ؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ، ومنها ما هو فرض ، إلا أن حد الإجزاء منه داخل في العدل ، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان. ))<sup>60</sup> وقال تعالى ( وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ) ( الأنعام 152 ) وقال جل شأنه ( ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ) ( المائدة 8 ) فهو في أحلك الظروف وأصعب المواقف ينهى عن الجور والانتقام للنفس .

**وهو** دين الأخوة الصادقة يتسم بأن أبوابه مفتوحة لا توصل في وجه من يريد الدخول فيه واعتناقه. فالمسلمون إخوة في الدين ، لا تفرقهم البلاد ، ولا الجنس ، ولا اللون ، فلا طبقية في الإسلام ، ولا عنصرية ، ولا عصبية لجنس أو لون أو عرق ، ومعيار التفاضل في الإسلام إنما يكون بالتقوى ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { ( الحجرات 13 ) )

قال ابن عاشور في معنى الآية (( لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضاً إلا بالكمال النفساني وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم والذي جعل التقوى وسيلته ولذلك ناط التفاضل في الكرم بـ عند الله، إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به ))<sup>66</sup>

60 - الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق هشام البخاري، دار عالم الكتب، السعودية ،

2003ف ، 10 / 165

66 - التحرير والتنوير ، 26 / 261

ومن خصائص هذا الدين أنه لا يمكن أن تتعارض الحقائق العلمية الصحيحة مع النصوص الشرعية الصحيحة الصريحة؛ إذ الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان ، وأمة وحال ، بل لا تصلح الدنيا بغيره: ولهذا كلما تقدمت العصور ، وترقت الأمم ظهر برهان جديد على صحة الإسلام، ورفعة شأنه حيث إنه يتفق مع الحقائق العلمية المكتشفة ويؤيد الظواهر الثابتة اليقينية .

وإذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقة لها، وإما أن يكون النص غير صريح في معارضته ؛ لأن النص وحقائق العلم كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين.. في الإسلام حل لجميع المشكلات : لاشتمال شريعته وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع. أن شريعته أحكم ما تساس به الأمم : وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح ، أو التنازع في الحقوق، لأنه أبعد ما يكون عن التناقض قال تعالى [ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا). (النساء 82)

## الخاتمة

في ختام هذا العمل المقتضب لابد لنا من القول: إنه لن يسع الباحث المنصف متى تحقق من شمولية الإسلام وعدالته وسموه إلا أن يقطع بشمولية هذا الدين وسعته، وصلوحيته لكل زمان ومكان، فضلا عن كون كتابه المقدس ودستوره المبجل " القرآن الكريم " يمثل مرآة لعقلية كل البشر، وسجلاً لتاريخ كل عصر ومصر، فهو

كتاب الإنسانية عامة، فمهما تنوعت البيئات، وتباعدت الأقطار والأمصار، وتفاوتت الأزمنة والأوقات، واختلفت الألسنة واللغات، وتفاوتت المشارب والنزعات، فإن هذا الكتاب سيظل قبلة القاصدين ونبراس السائرين يجد فيه كل طالب للحق مطلبه، ويبقى الإسلام ديناً لكل الفئام والأجناس يحمل معالم العالمية ويواكب التطورات العلمية والاكتشافات المعرفية.

إن القرآن بمبادئه وقيمه شيء والتجاوب الاجتماعي له والتقييد بهذه التعاليم كدستور ينظم حياة الناس شيء آخر، فقد يتناقض الإسلام بمبادئه السمحة وتقنياته المنظمة مع تصرفات معتقيه وواقعهم المعيش وسلوكياتهم العامة، وهو أمر يتعين إدراكه وإقراره ؛ فليس من الحكمة ولا المنطق أن يعاب الإسلام بأفعال معتقيه. لذا وجب احترام الإسلام كدين سماوي جاء لإسعاد البشر، واتباع أوامره والتقييد بتعاليمه، و عدم اتهامه بالشبه والأباطيل.

وإننا نوصي بإجراء المزيد من البحوث والدراسات التي تسهم في التعريف بالإسلام، وبيان ميزاته وما يحويه من خصائص تميّزه عن كافة الرسالات والملل، وما ينطوي عليه من مرونة التشريعات مما يضمن مواكبته لتطورات الزمن .

### المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- إرادة التغيير في الإسلام . صابر طعيمة . مطبعة الاستقلال الكبرى . القاهرة . ط1  
. 1968 م

- الإسلام دين العلم و المدنية . الشيخ محمد عبده . تحق عطا العراقي . دار قباء .  
القاهرة . 1998 م

- تاريخ القرآن . تيودور نولدكه . ترجمة جورج تامر . منشورات الجمل . بغداد . ط4 . 2008 م
- التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، الدار التونسية ، ط 1984م ،
- حياة محمد - محمد حسين هيكل .
- درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ،
- دفاع عن الشريعة . علال الفاسي . منشورات مؤسسة علال الفاسي . المغرب . د.ت
- الدين . محمد عبد الله دراز . دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية . د.ت .
- الدين والحضارة الإنسانية . محمد البهي . مكتبة الشركة الجزائرية . 24 باب عزون . الجزائر . د.ت
- \_ روح الحضارة الإسلامية . محمد الفاضل بن عاشور . تعليق وتقديم محمد عمارة نهضة مصر للطباعة والنشر . ط1 . 2003 م
- \_ زهرة التفاسير . محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي . د.ت
- السلام العالمي و الإسلام . سيد قطب . مكتبة وهبة . مصر . ط 1951م
- سنن الترمذي (المكتبة الإلكترونية . المكتبة الشاملة )
- سنن أبي داود . تح محمد حي الدين . دار الفكر . د.ت ( المكتبة الإلكترونية . المكتبة الشاملة )
- صحيح مسلم ،
- قصة الحضارة . وول ديورانت . ترجمة محمد بدران . مطبعة التأليف والترجمة والنشر . ط2 . 1964م .
- القرآن حرر الإنسان . إبراهيم الشهابي . منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس . ليبيا . ط2 . 1992
- كتاب الأمة . المستقبل للإسلام . أحمد علي الإمام . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . قطر . ط1 . 1995 م
- \_ كتاب الأمة، أدب الاختلاف في الإسلام ، طه جابر فياض

- مقالة : دور الإعلام في نشر تيار العولمة ، للدكتور هاشم عبده هاشم ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، عدد صفر عام 1420هـ
- مقدمة ابن خلدون ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1967م -
- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي . عبد العظيم الديب . كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر عدد 27

### فهرس الموضوعات

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---------|
| 3      | المقدمة |

|    |                               |
|----|-------------------------------|
|    |                               |
| 5  | حاجة الناس إلى الدين          |
| 18 | موقف الأمم من الإسلام         |
| 31 | اتهام الإسلام بالجمود         |
| 42 | صلوحية الشريعة لكل زمان ومكان |
| 47 | الشورى و عالمية الإسلام       |
| 57 | حوار الإسلام من أسس عالميته   |
| 67 | من خصائص الإسلام              |
| 70 | الخاتمة                       |
| 71 | قائمة المصادر والمراجع        |
| 73 | الفهرس العام                  |